

موسوعة

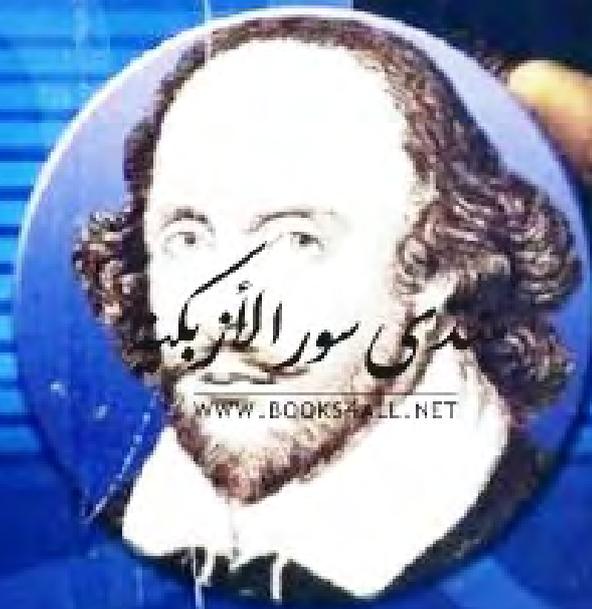
الثقافة التاريخية

والأثرية والحضارية

التاريخ الحديث والمعاصر

١

عصر النهضة الأوروبية



www.books4all.net

www.books4all.net

أ.د. إسحق عبيد



منتدی سور الأزبکیه

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>

موسوعة الثقافة التاريخية
والأثرية والحضارية
التاريخ الحديث

٦

عصر النهضة الأوروبية

تأليف
أ.د. إسحق عبيد
كلية الآداب - جامعة عين شمس



تثال لورنزو دي ميديشي - مايكل أنجلو روما

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٦ شارع جواد حسني ت: ٣٩٣٠١٦٧

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



القديسة يوحنا... ليوناردو دافنشي

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإشراف: الفنى
محمى الدين فتحى الشلوى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
حسام حسيه أنيس

٩٤٠، ٢ إسحق عبيد.
عصر النهضة الأوروبية/ تأليف إسحق عبيد. - القاهرة: دار
الفكر العربى، ٢٠٠٦.
٨٨ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية
والأثرية والحضارية. التاريخ الحديث والمعاصر؛ ٦).
بيلوجرافية: ص ٨٥.
تدمك: ١ - ٢١٤٥ - ١٠ - ٩٧٧.
١ - الحضارة العربية وأوروبا. ٢ - الكشوف الجغرافية.
٣ - حركة الإصلاح الدينى. أ - العنوان. ب - السلسلة.

رقم الإيداع: ٨٧٩٩ / ٢٠٠٦

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى، بالعاشر من رمضان

دار الفكر العربى

اللجنة الاستشارية لسلسلة الفكر العربي للدراستات التاريخية

أ. د سعيد عبد الفتاح عاشور
استاذ تاريخ العصور الوسطى كلية الآداب جامعة القاهرة رئيس
اتحاد المؤرخين العرب. رئيس اللجنة

أ. د عادل حسن غنيم
استاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة عين شمس.

مقرر عام اللجنة

أ. د عبد الحلیم نور الدين
استاذ اللغة المصرية القديمة بكلية الآثار عميد كلية الآثار جامعة
القاهرة فرع الفيوم مدير مركز الخطوط بمكتبة الإسكندرية

مقرر التاريخ القديم

أ. د إسحق عبید
استاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة عين شمس.

مقرر التاريخ الوسيط

أ. د عصام الدين عبد الرؤف
استاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب جامعة القاهرة.

مقرر التاريخ الإسلامى

أ. د جمال زكريا قاسم
استاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة عين شمس.

عضوا

أ. د عطية أحمد محمود القوصى
استاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب جامعة القاهرة.

عضوا

أ. د صابر دياب
عميد كلية الآداب جامعة القاهرة فرع الخرطوم، سابقا،

عضوا

أ. د رافت عبد الحميد
عميد كلية الآداب سابقا جامعة عين شمس، واستاذ تاريخ العصور

عضوا

الوسطى.

مديرا التحرير: الكيميانى: أمين محمد الخضرى

المهندس: عاطف محمد الخضرى

سكرتير اللجنة: عبد الحلیم إبراهيم عبد الحلیم

التصميم والإشراف الفنى: محيى الدين فتحى الشلودى

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم السلسلة



التاريخ علم من أجل العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة. ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلى بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضي لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

إن الروايات التاريخية قد تتشابه في بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته. . على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجال خدمة الثقافة العربية. والتى وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور



يعرض هذا الكتاب لعصر النهضة (الرينسانس أو الميلاد الجديد) في أوروبا بعد الانعتاق من أغلال الإقطاع وبحور الظلام... ولقد كان للعرب والحضارة العربية الإسلامية فضل يعترف به الجميع في تنوير العقلية الأوروبية بعد ترجمة شوامخ الفكر العربي إلى اللاتينية في مختلف فروع المعرفة.

ولقد قدر لإيطاليا أن تقود ركب النهضة الأوروبية من خلال الحركة الإنسانية، والتي وصلت آثارها إلى ما وراء جبال الألب لتطال فرنسا وألمانيا وإنجلترا. وقد شهد القرن الخامس عشر حركة الكشوف الجغرافية التي كانت في واقع الأمر توسعاً أوروبياً إمبريالياً في الشرق والغرب، حيث ثم البطش بالهنود شرقاً وبالهنود الحمر غرباً.

ولعل أهم حدث في عصر النهضة هو حركة الإصلاح الديني التي أشعل نيرانها مارتن لوثر، والذي قدر له ولأتباعه «البروتستانت» أن يدقوا المسمار الأخير في نعش بابوية العصور الوسطى ومحاكم تفتيشها!

«ثمّ مضيّنًا . . دليلُ غرّبتى
وأنا من وراء
نُسرِعُ الخُطى . . وداعًا لممرِ الشقاءِ
وتلمسنا الطريقَ وكلّانا
يُغالبُ الظُّلمةَ . . بأملِ الرجاءِ
فلقينا فوهةً . . تكشفُ للعينِ
عن أفقِ السماءِ
فبتنا نسامرُ النجومَ
ترقصُ من علٍ
ولكأنهنَّ عذارى
يحترقنَّ من فرطِ الحياءِ»
(دانتي) بتصرف من المؤلف



“Lo Duca ed io per quel cammino ascoso
Entramo a ritornar nel chiaro mondo:
E Senza cura aver d'alcun riposo
Salimmo suso, ei primo ed io secondo,
Tanto ch'io vidi delle cose belle
Che porta il ciel, per un pertugio tondo,
E quindi uscimmo a riveder le stelle”
(Dante)



الفصل الأول شمس العرب تسطع على أوروبا

يعترف المفكرون الموضوعيون والمنصفون من أهل الغرب بأن الحضارة العربية الإسلامية كانت صاحبة اليد الطولى في إذكاء روح النهضة في أوروبا،

وفي إيقاظ بلدانها من أغلال الهرم الإقطاعي وبؤس القنينة وإرهاب محاكم التفتيش، وفي أخذ مؤسساتها العلمية جنوباً وشمالاً بالنهج العقلاني والفكر الحر الخلاق وسعة الصدر نلرأى والرأى الآخر دون مصادرة أو إدانة.

تؤكد الباحثة زيغريد هونكه في كتابها "شمس الله تسطع على أوروبا" على حقيقة أنه في سنة ٩٩٩م ارتقى عرش البابوية في روما واحد من علماء عصره، بعد أن وضع جميع الدوائر أنه مفكر مبدع



تمثال "ابن رشد" في إحدى جامعات إسبانيا



رحب الآفاق، ولقد أمضى هذا العالم، واسمه جريرت من أوبلاك، بعض الوقت في إسبانيا حيث تعلق بالعرب، وعشق دراسة الرياضيات العربية والفلك ومختلف فروع المعرفة الأخرى على يد أساتذة عرب في الأندلس، ومن خلال ترجمات أعمال شوامخ الفكر العربي إلى اللسان اللاتيني. وعندما أصبح جريرت رأسا للكنيسة الرومانية باسم سلقستر الثاني كان «قد تعلم أشياء لم يكن أحد في أوروبا ليحلم بها أو يسمع عنها، وأهمها نظام الأرقام والأعداد العربية، وهكذا فإن البابا الروماني في العام الأخير من القرن العاشر للميلاد صار يحسب

بالعربية».

وتضيف هونكه أن الحضارة العربية المبكرة لم تأخذ عن الحضارة الإغريقية أو الحضارة الهندية إلا بقدر ما أخذ طاليس أو فيثاغورس من الحضارتين البابلية والمصرية. لقد طور العرب بتجاربههم وأبحاثهم العلمية ما أخذوه من مادة خام عن الإغريق، وشكلوه تشكيلا جديدا، فالعرب في الواقع هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمي القائم على التجربة.

ويشهد مؤرخ الطب الكبير نيوبرجر بأن العرب هم الذين أدخلوا النور والترتيب على تراث الأقدمين الذين طالما اكتفت أعمالهم شائبة الغموض وغياب التسلسل. وقد فضلهم الغربيون على غيرهم، فأصبح العرب أساتذتهم الذين أخذوا عنهم معارفهم الطبية أكثر مما أخذوا عن كتب اليونان المبعثرة المتبورة، وهكذا لم يكن هناك عالم واحد من بين العلماء الأوروبيين إلا ومد يده إلى الكنوز العربية يغرف منها ما يشاء الله له أن يغرف، وينهل منها كما ينهل الظمآن من الماء العذب، رغبة في سد الثغرات التي لديه وفي الارتقاء إلى مستوى عصره.

لقد كان لجابر بن حيان (القرن الثامن الميلادي) الفضل في صك كلمة «الكيمياء» لتلقفها جميع اللغات الأوروبية بصيغتها العربية كما هي.

وأثرى الأصمعي (القرن الثامن الميلادي) التاريخ الطبيعي ببحوثه.

أما الكندي (القرن التاسع الميلادي) فكانت له إضافات مبدعة في البصريات وفي الفلسفة. ويات كتاب أبي بكر الرازي (أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الميلادي) «الحاوي في الطب» مصدر إرشاد وإلهام لأطباء الغرب. واكتسب أبو النصر الفارابي (أواخر القرن العاشر



الميلادى) لقب «المعلم الثانى» بعد أن نجح فى «الجمع بين رأى الحكيمين» أفلاطون وأرسطو. وكان الجبر واللوغاريتم من نتاج عبقرية أبى بكر الخوارزمى (أواخر القرن العاشر الميلادى)، إلى جانب جداوله الفلكية التى تلقفها العلماء اللاتين فى لهفة زائدة. وصار كتاب «القانون فى الطب» للعبقرى ابن سينا (أواخر القرن الحادى عشر الميلادى) مرجع أساتذة وطلاب جامعات أوروبا من أقصاها إلى أقصاها. كذلك صارت أطروحات ابن عيسى (١٠٠٠م) وابن الهيثم (أواخر القرن الحادى عشر الميلادى) مصدرا أساسيا فى البصريات وطب العيون. أما الفيلسوف الأندلسى ابن رشد (القرن الثانى عشر الميلادى) فقد علّم مفكرى الغرب اللاتين كيف يقرأون أرسطو، والأهم من ذلك أنه صالح للخاصة والعامة بين العقل والإيمان.

وتدين أوروبا فى خطواتها الجبارة من بحر الظلمات إلى الأفق الجديد إلى نفر من العلماء اللاتين الذين قاموا بترجمة هذه الأعمال العربية إلى اللسان اللاتينى، لغة العلم آنذاك؛ بدءاً بأبيلارد من باث ومرورا بيوحنا الإشبلى، وروجر من هارفورد، وأرنولد السكونى، ودون خوان مانويل، وبيرو دى لاثينا، وليوناردو من بيزا، وهرمان الدماشى، ورايموند من مرسيليا، وجيرارد من كريمونة، ومايكل سكوت، وبرنارد من بالرمو، وجاكوب من كابوا، حتى نصل إلى العالم الإنجليزى روجر بيكون فى القرن الثالث عشر الذى يعترف - بعد أن درس ترجمة «البصريات» للكندى - بأنه «ينبغى على كل من يطلب العلم والحكمة أن يتلمذ على أيدي العرب».

والحق أن العرب فى العصور الوسطى كانوا عباقرة العالم، وصارت اللغة العربية منذ القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العالم الراقى عند الجنس البشرى كله، حتى بات ضروريا لآى فرد فى الغرب الأوروبى كى يلم بشقافة العصر أن يتعلم اللغة العربية. فى ذلك الوقت من الزمان كان الغرب اللاتينى يتطلع إلى الانعتاق من أغلال الإقطاع وشراسة فرسانه، ومن جيروت قلاع ومعازل الأرستقراطية المتبربرة التى كان يفاخر أدواقها وباروناتها بأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة.

ولقد وفد التأثير الحضارى العربى على أوروبا من قنوات متعددة: من خلال الاحتكاك بالعالم العربى زمن الحروب الصليبية العدوانية على مقدرات ومقدسات شعوب الشرق الأدنى، ومن خلال بلاط فردريك الثانى فى صقلية؛ ومن ينابيع الفكر الإسلامى العربى فى بلاد الأندلس. وهكذا جاهد الغرب الأوروبى فى التحرر من استبداد السلطتين الزمنية والدينية، ومن

طغيان اللسان اللاتيني على اللغات الوطنية المحلية، ومن سطوة أمراء الإقطاع والأساقفة على أبدان وضمائر الناس. وصار الإنسان الفرد على أعتاب النهضة سيد أفعاله دون حاجة إلى وصاية كهنوتية عليه، وأمسى يستشرف إلهامات «الحياة الجديدة» (Vita nova) على حد تعبير الشاعر الفلورنسي دانتي، تلك الحياة التي تتأني للإنسان من الداخل.



ثم انطلق العقل الأوروبي نحو الفكر الحر، والهوى الحر، والتعبير الأدبي الحر. وفي البداية أخذ الأوروبيون في بعث التراث اليوناني الروماني من الأكفان، وبعدها لم يكتفوا بذلك وإنما مضوا قدما نحو الإبداع والخلق في جراءة نادرة مكنتهم من التعبير عن أنفسهم كما هم في حاضرهم وليس بشيء قد مضى. وبهذه الفلسفة الثورية الجديدة، فإن الكثير من القيم التي ظلت أطروحات موضوعية صارت شيئا ذاتيا، وحتى البديهيات الرياضية بعد أن كانت مطلقة خضعت هي الأخرى إلى نظرة نسبية. كذلك صارت الحال مع تجريدات عدة، عندما أخضعت للفحص والتمعن تحت مجهر العقلانية والتجربة الملموسة.



جابر بن حيان في عمله



لقد أضحت المعرفة حقاً لكل الناس، دون تمايز طبقي؛ لأنها هبة الله للبشر أجمعين، بعد أن كانت السلطات العلمانية والدينية في العصور الوسطى قد اتكأت على أفضال كثيرة اتخذت منها الذريعة للتنكيل بكل صاحب فكر حر أو مخالف، بتهمة «الهرطقة» حيناً، وبسبب ممارسة السحر الأسود في أغلب الأحيان.



ابن سينا - الشيخ الرئيس

الفصل الثانى إيطاليا تقود الركب



للمؤرخ الإنجليزي المرموق إدوارد جيبون فى كتابه العمدة «اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية» حكم صائب على العصور الوسطى الأوروبية التى امتدت من القرن الرابع حتى القرن الرابع عشر، بأنها «فترة من التبرير والغيبية»، ففى هذه الحقبة التاريخية ترسخت فى ضمائر الناس فكرة مؤداها أن هذا العالم إن هو إلا سراب كاذب، وبأن كل ما هو أرضى أو ماضى أو جسدى تافه ينبغى العمل على إذلاله بل وإماتته. على أنه مع انتشار التعليم ووصول المؤثرات الحضارية العربية إلى الغرب الأوروبى تنبه الناس إلى قيمة الحياة الدنيا والجوانب الإيجابية فيها والتى لا تتعارض مع السعى الروحانى، فأخذوا ينظرون إلى العالم نظرة مختلفة. وقد شملت النظرة الجديدة كل مناحى الحياة، ولم يعد المصورون مثلا يكتفون برسم صور للبشر لا حياة فيها ولا حركة ولا نبض، وإنما راحوا يعبرون عن إحساساتهم وانطباعاتهم فيما تخطه الريشة لتعبر عن الذاتية الفردية التى طمست معالمها فى درج الطبقات التى لم يكن الإنسان الفرد فيها إلا ترسا فى عجلة كبيرة. وانكب أهل العصر الجديد على دراسة علوم التشريح والتاريخ الطبيعى، حتى يترجموا فى أعمالهم

نبضا من الصدق والقيمة الجمالية، مسترشدين أيضا بآيات الفن الكلاسيكى اليونانى والرومانى. وكان الرجوع إلى التراث اليونانى الرومانى وراء وصف عصر النهضة باسم «الرنيسانس» أى «الميلاد الجديد» (Renaissance). ومن أوائل الإيطاليين الذين استلهموا التراث الكلاسيكى كان الشاعر الفلورنسى دانتي (١٢٦٥-١٣٢١)، الذى شهد تقلبات وصراعات سياسية فى مدينته فلورنسا بين حزبي «السود» مؤيدى البابوية و«البيض» مؤيدى الإمبراطورية الألمانية، ثم نفى لتورطه فى الصراع خارج فلورنسا. وفى منفاه أخرج دانتي ملحমته



دانتي - رسم دوريه



الشهيرة «الكوميديا الإلهية»، التي استوحاها من ملحمة الشاعر الروماني ثرجيل (إنباد)، حيث كانت ديدو ملكة قرطاج تظهر لإينياس البطل الذي كان قد هجرها وحطم قلبها ترشد خطاه وهو يتحسس طريقه إلى العالم السفلي. من هذه اللوحة الكلاسيكية شعرا استلهم دانتي «رحلته» إلى العالم الآخر، في لغة إيطالية عذبة وفي أوزان موسيقية أثارت ذهول معاصريه. وفي هذه الرحلة يأخذنا دانتي إلى «الجحيم» في «عمق الأرض بحيث إن ألقى فيها حجر لم يصل إلى القاع إلا بعد سبعين عاما». وجحيم دانتي من عشر درجات، كل درجة للقصاص على

ذنب معين من أوزار الحس؛ من بصر وسمع ولسان ويد وبطن وقدم وفرج. وفي الدرك السفلي من الجحيم يقبع إبليس الذي أوقع البشرية في غوايته. وبنفس الدرك حفرة لقابيل قاتل أخيه هابيل. أما الدائرة التاسعة في جهنم فهي ليست من النار وإنما من الجليد. ويصور دانتي إبليس في عمق جهنم، وله ثلاثة وجوه وست عيون وثلاثة ذقون وثلاثة أفواه يمضغ بها الخونة: يهوذا وبروتوس وكاسيوس.



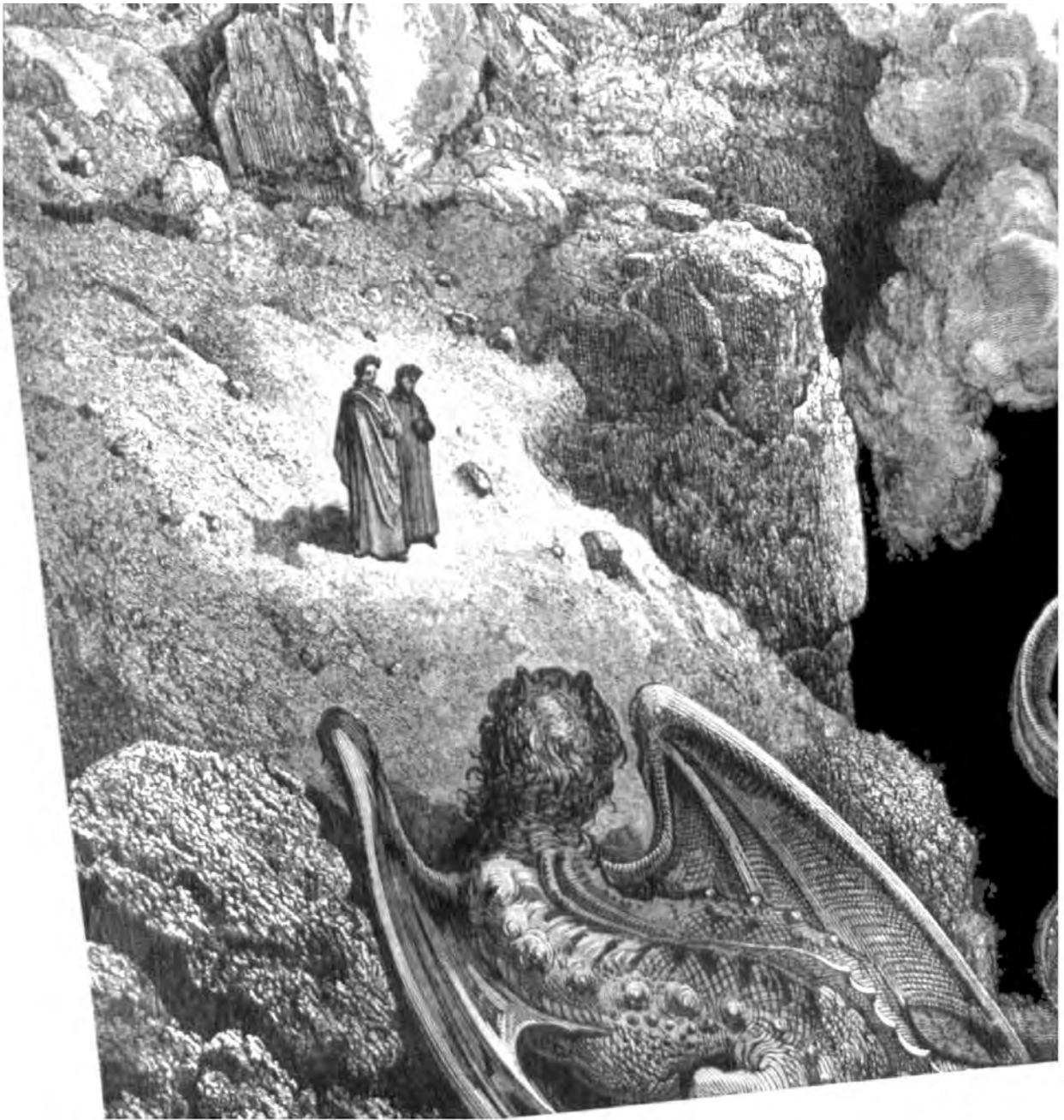
وفي المطهر نلقى حملة الصخور على الظهر، وهم يتطلعون إلى الأشجار المثمرة دون أمل بسبب ثقل الأحمال. وعند مخارج المطهر تظهر بياتريس (حب دانتي الأول والتي تزوجت من غيره وماتت في شرح شبابها) التي يلقيها «بعروس السماء» لترشد خطاه قبالة الفردوس. وملكوت الفردوس هو البهاء الكلي والخالص في لون الذهب، وهناك تتصاعد الأناشيد الإلهية تسيحاً من الأرواح للفيض الإلهي الذي لا تجرؤ العيون على معاينته.

«الجحيم» لدانتي «رسم دوريه



دانتي في السموات - رسم دوريه

وسواء في الجحيم أو المطهر أو الفردوس نقابل أشخاصا من صميم سجلات التاريخ من أبطال الحروب مثل أخيل بطل طروادة، ومن الزهاد مثل فرانسيس الأسيسي؛ ومن عامة الناس مثل السيدة فرنسيسكا التي تعترف لدانتي أنها بعد أن قرأت قصة لانسلوت الفارس وغرامه بالملكة جونيثير زوجة الملك آرثر «صاحب المائدة المستديرة»، أقبلت على عشيقها باولو دون أن تشعر بوخز ضمير، وبأنها ليست نادمة على فعلتها رغم ما تكتوى به من نار في قلب جهنم! ويقدم دانتي في «رحلته» أيضا صورا للعواصف التي تجتاح الغابات، والضفادع التي تقفز إلى جداول المياه من جوف الأفاعي، والزواحف التي تمرق كوميض البرق، والأجساد العارية التي تنصب



زيتا، والام التي تحتضن وليدها لتحمية من سعي النار. هذا وقد أنزل دانتي في «الجحيم» عددا من البابوات الذين تردوا في خطيئة الرشوة وبيع المناصب الدينية بالمال.



وإلى جانب «الكوميديا» أخرج دانتي كتابا باللاتينية بعنوان «عن الملكية» (De Monarchia)، يدعو فيه إلى إرساء قواعد نظام حكم عالمي يسهر على السلام والعدالة والحق، شريطة ألا يكون للبابوية في هذا النظام يدٌ من قريب أو من بعيد.

كان طبيعيا أن تنزعج الدوائر البابوية وتوابعها من هذا التطاول غير المسبوق. ولكن البابوية، وقد بدأت تتكسر أنيابها، لم تعد تملك القدرة على إحراق دانتي بالنار كما كانت تفعل بالأمس القريب، وباتت كلمات دانتي على كل لسان دون خوف أو توجس من شبح محاكم التفتيش.

بترارك

لقد فتح دانتي الطريق أمام الإيطاليين لما يعرف باسم «الحركة الإنسانية» بمعنى إحياء التراث اليوناني الروماني وبعثه من جديد، بعد أن ظل ماثات السنين من المحرمات. والتقط الخيط بعد دانتي كل من فرنسيسكو بترارك (١٣٠٤-١٣٧٤) وجيوفاني بوكاشيو (١٣١٣-١٣٧٥) تباعا. كان بترارك هو أيضا من فلورنسا، وقد قدر لأسرته أن تنفى عن المدينة لأسباب سياسية أيضا، فهاجرت إلى منطقة بروقانس في الجنوب الفرنسي. وفي فرنسا التحق بترارك بجامعة مونبلييه ليدرس القانون. وفي سنة ١٣٢٦م عمل في البلاط البابوي في منفاه في مدينة أفينيون، وذلك بعد أن هاجر البابوات من روما إلى فرنسا. وقد كان بترارك شاعرا فذا بمقاييس عصره، فنظم العديد من القصائد، أشهرها مجموعة بعنوان (Canzoniere) نطالع فيها حكاية حب الشاعر لسيدة تدعى لاورا، يظن أنها كانت زوجة لنبييل فرنسي اسمه هيودي ساد. ويبلغ عدد قصائد هذا الديوان ثلاثمائة وست وستين قصيدة، قيل: إن بترارك في أواخر حياته أبدى تجاهها نفورا شديدا ونداما جارفا.

وله كتابات باللاتينية من بينها كتاب بعنوان «إفريقيا» يعرض فيه لحملة سكيو أفريكانوس ضد قرطاج في الشمال الأفريقي (١٤٦ ق م) والتي انتهت بتحويل قرطاج إلى كومة رماد. وله كتاب آخر عن «مشاهير الرجال»، وكتاب آخر بعنوان (Secretum) تأثر فيه «باعترافات» القديس أغسطينوس. وله أيضا كتاب عن حياة الزهد والتوحد. وفي سنة ١٣٤١ توج بترارك «أميرا للشعر» في مدينة روما. وبعد طول ترحال عاد بترارك إلى إيطاليا، فحلّ ضيفا على نائب كونت ميلان، ثم انتقل إلى مدينة البندقية، فمدينة بادوا، وأمضى بقية حياته في بلدة أركوا على مقربة من بادوا، وذلك مع ابنته فرنسيسكا وزوجها.



وقد نظر المعاصرون إلى بترارك نظرة إعجاب وتقدير، حتى إن البعض وضعه في مرتبة أعلى من دانتى نفسه، على أنه فيما تلا ذلك من تاريخ ظهر من النقاد من يقول بأن نتاج بترارك الشعرى طبلٌ أجوف يدق على العواطف الرخيصة، بل إن كلمة «بتراركى» صارت فيما بعد سبةً يوصم بها من يتكلف من الشعراء وكتاب النثر أيضا! .

بوكاشيو:

أما جيوفانى بوكاشيو فقد كان ابنا غير شرعى لفلورنسى يدعى بوكاشيودى شلينو . وقد أرسله والده إلى مدينة نابلى - التى كانت تخضع لسلطان فرنسا - ليدرس القانون والاقتصاد . وفى نابلى وقع جيوفانى فى غرام ماريادى أكونيا ابنة الأمير الفرنسى نفسه روبرت . ولم يكمل جيوفانى دراسته الجامعية، وانصرف إلى الكتابة والشعر . ومن رواياته الشهيرة: «فيلوكولو» و«فيلوستراتا» و«ترويلوس وكرسيديا» و«الجارة المحبوبة» و«رثاء للسيدة فيامتا» (Elegia di Madonna Fiammetta) و«حورية فيزولى» وغيرها من قصص الحب والغرام .

ولكن أهم أعمال بوكاشيو جميعا هى «ديكاميرون» (١٣٦٥م)، وهى حكايات بلغت المائة حكاية جاءت على لسان نسرٍ من أهل فلورنسا وقد أفلتوا بما يشبه المعجزة من وباء الطاعون الذى كان قد ضرب المدينة سنة ١٣٤٨م . وهذه «الحكاوى» تجمع بين الكوميديا والتراجيديا فى ماعون واحد، وجميعها من خبرات واقعية خبىرها هؤلاء الناجون وقت الوباء الكبير؛ ولهذا فإن هذه الصورة تعتبر خطابا أو صورة أرضية فى مقابل الصورة السماوية التى قدمها الشاعر دانتى فى «الكوميديا الإلهية» . والفكرة التى تدور حولها الحكاوى هى الصراع بين الإنسان وقدره، وذلك فى عرض واقعى بأسر القلوب .

وقد كان بوكاشيو صديقا حميما للشاعر بترارك، وقد بكى عليه بكاءً مرا عند وفاته . ويذكر أيضا أن بوكاشيو قد وضع عدة مؤلفات باللاتينية عن الآلهة القدامى، وعن مشاهير النساء والرجال فى التاريخ القديم، وأيضا فى مديح مثله الأعلى دانتى الفلورنسى .

ومع بدايات القرن الخامس عشر وصل إلى فلورنسا عالم بيزنطى اسمه مانويل كريسولوراس، الذى اضطلع فيما بين عامى ١٤٠٢، ١٤٣٠م بتدريس اللغة والآداب اليونانية فى جامعة بادوا، وقد تحلق حوله عدد وافر من الإيطاليين من أشياع «الحركة الإنسانية» . وفى سنة ١٤٣٨م وصل الإمبراطور البيزنطى يوحنا الثامن ليشارك بنفسه فى مؤتمر فلورنسا للنظر فى مساعدة الغرب الأوروبى للدولة البيزنطية ضد الدولة العثمانية . وقد اصطحب الإمبراطور معه عالما يدعى

بياريون، الذي آثر البقاء في فلورنسا يعلم اللغة اليونانية، وهو الذي تبرع بمكتبته فيما بعد لجمهورية البندقية. وأصبحت إيطاليا بحمى الكلاسيكيات، وقيل للتدليل على هذا الوحم الجديد أن شابا يدعى بيكو ديللا ميراندولا كان يجيد تسع عشرة لغة وهو في سن الحادية والعشرين!



ولقد تبنت الأسرات الحاكمة للمدن الإيطالية الثرية مهمة تشجيع وإيواء العلماء الإنسانيين، وراح هؤلاء النبلاء الحكام أنفسهم يلتقطون المخطوطات من كل صقع، ويعهدون للعلماء بفك طلاسمها وإخراجها للناس. كذلك وظف هؤلاء الأمراء «المستيريون» عددا من النابهين ليكونوا مريين خصوصيين لأبنائهم وبناتهم في القصور. من ذلك مثلا ما فعله دوق مدينة أوبينو الذي جعل من العالم كاستليونى مرييا خاصا لأولاده، كما كانت الحال في العالم اليونانى القديم. وكان كاستليونى بؤمن بضرورة إعطاء البنات نفس الحظ الذى يناله الذكور من الثقافة والآداب، بعد أن كانت العادة في العصور الوسطى أن توارى البنات خلف الستار حفاظا على طهرهن الجسدى والعقلى جميعا.

ونشط الإيطاليون في مراجعة خطب شيشيرون وكاتو ومحادثتهما في الحديث، كما عمل الكثيرون على تنقية اللغة اللاتينية السائدة من شوائب «الجرمنة» والتبرير التى لحقت بها إبان العصور الوسطى. وسرت في الجميع روح جديدة أحدثت انقلابا في المواقف والاتجاهات حتى فى أشد الأروقة جمودا وتحفظا؛ ففي سنة 1456م اختير للجلوس على كرسى البابوية إيطالى يدعى إنياس سلقويس الذى كان قد أخرج كتابا بعنوان: «فن الخطابة» (Artis rhetoricae precepta)، وكان المبرر الأقوى في اختياره للعرش البابوى أنه أعلم رجال عصره في اللسان اللاتينى القويم. وقد شهد ذلك العصر علماء كثيرين يجوبون مختلف البلدان والأديرة بحثا عن المخطوطات المطمورة هنا أو هناك. وانتقلت الحمى إلى معسكرات الجند، فدعى مشاهير النحويين والخطباء ليحاضروا العسكر في الكلاسيكيات، كما استخدم الأمراء والملوك هؤلاء العلماء كسفراء لهم إلى مختلف العواصم الأوروبية. وصار من علامات الرفعة والوجاهة الاجتماعية أن يستضيف الأمراء أعلام الحركة الإنسانية في قصورهم، حيث يدعى عليه القوم رجالا ونساء للاستماع إلى محاضراتهم، وكثيرا ما كان هذا الجمهور ينفعل لأسطورة هنا أو قصة حب هناك فينخرط الجميع في البكاء والتنهيدات.

وبهذا توج سقراط وأفلاطون وأرسطو من جديد بعد إهمال لردح من السنين. وأحس الناس أن الماضى الذى طلقه العصر الوسيط صاحب مصداقية لا تقل عن مصداقية الحاضر نفسه، وبأن المستقبل سوف يلتفت غدا إلى الحاضر بنفس القدر الذى يلتفت به الحاضر إلى الماضى.



لقد كانت هذه النظرة عن «الاستمرارية» (Continuum) في سجل البشرية أعظم منظومة أخرجتها مدرسة فلورنسا في القرن الخامس عشر.

لقد حمل بيساريون معه من القسطنطينية ثمانمائة مخطوطة يونانية، الأمر الذي دفع الإيطاليين إلى التنقيب عن مخطوطات كتابهم القديم؛ من أمثال تاكيتوس وليثي وغيرهما. وفي غمرة هذا الحماس للمخطوطات وتحقيقها بأسلوب علمي، فاجأ العالم الإيطالي لورنزو فاللا (١٤٠٥-١٤٥٧م) العالم بأن الوثيقة المعروفة باسم «هبة قسطنطين» (Donatio Constantini) وثيقة مزيفة

من الألف إلى الياء. تقول هذه الوثيقة أن الإمبراطور قسطنطين الكبير كان قد أصيب بمرض خبيث عضال هو مرض «الجدام»، وأن أطباءه وقد أعيتهم الحيلة نصحوا إليه أن يغتسل بدم أطفال حديثي الولادة كي يبرأ من هذا الوبال، وأن قسطنطينا قد أمر بجمع عدد من هؤلاء المواليد، وإعدادهم للمذبحة البشعة لتطييب القيصر الكبير.

وفي غفوة نوم زاره طيف ونصحه بأن يرفع يديه عن هؤلاء الأطفال، وأن يقصد إلى الباب سلقستر ليعافيه بصلاته والماء المقدس. وكان أن انصاع قسطنطين للرؤية فقصده إلى الباب، وتم له الشفاء!

مدرسة أثينا - رسم رافائيل سانزيو





ومكافأة للبابا على هذا الصنيع الجميل أهدى قسطنطين قصر الفاتيكان للبابا ليقيم فيه، كما سمح له بامتطاء جواد أبيض وبتزيين رأسه بقلنسوة بيضاء تماما كما يتزين ويمتطى الإمبراطور نفسه، إلى جانب ذلك قرر قسطنطين أن ينتقل من روما إلى عاصمة جديدة (بيزنطة = القسطنطينية) في الشرق ليترك روما وسائر بلدان الغرب الأوروبي تحت إمرة وصولجان البابا لا يشاركه في ذلك أحد!

أعلن العالم لورنزو قالالا أن لغة وخط وقلم وأسلوب وخامة الوثيقة وما تحتويه من أحاجي لا تنتمي إلى عصر قسطنطين وسلقمتسر، وإنما هي من تزييف الدوائر البابوية في القرن الثامن للميلاد على عهد ليو الثالث والإمبراطور شرملان.

ودلل قالالا على صدق نظريته بأن العملات البابوية لعصر سلقمتسر خالية من أية إشارة إلى هذا الحدث الجلل. لو كان حقا قد وقع، وبأن الأبحاث أثبتت أن قسطنطينا لم يكن بحال مصابا بمرض الجذام. وهكذا انكشف للعالم زيف كبير، ومضت «هبة قسطنطين» في كتب التاريخ على رأس مزيفات العصور الوسطى، والتي ظل الناس من خاصة وعامة يصدقون كل حرف ورد فيها! وليس أدل على «الانفتاح» الجديد أن قالالا الذي افتضح البابوية وفعلها المشين، قد اختير ليكون سكرتيرا خاصا للبابا نيقولا الخامس. ولو أن قالالا قد ظهر قبل ذلك بحين لكان نصيبه الإحراق بالنار على أنه «هرطيق» كبير!

وتشجع المفكرون، واتجه الكتاب في إيطاليا بعيدا عن تقليد العصر الوسيط في الكتابة عن الأباطرة والجنرالات والكرادلة وأمراء الإقطاع، واستعاضوا عن ذلك بالكتابة عن حياة الشعراء والفنانين وأهل العلم، من ذلك ما حظى به العالم الفلورنسى قسباسيانو نيكولو دي نيكولى الذي كان يقطن مكتبة تحوى ثمانمائة مخطوطة من التراث القديم، وقد ورد في سيرته ما يلي:

«قسباسيانو رجل وقور حسن الهندام، حاضر البديهة، متقد الذكاء والحيوية .. لا تفارق الابتسامة شفثيه، وحديثه ينساب عذوبة وطلاوة، وهو يرتدى ثوبا من اللون القرمزي ينساب حتى يلامس الأرض .. وهو أعزب، عزوف عن الزواج، فلقد اتخذ العلم له زوجا، واستعاض عن ذلك بمديرة منزل حكيمة ونظيفة. وهو أشد الناس أناقة على مآدبته، ويتناول طعامه من أوان تشبه التحف القديمة. والمائدة مكسوة بالبورسلين، والأواني مزخرفة بآيات الفن، والأقداح من البلور الشفاف. وأما المفارش فهي من القطن أو الكتان الناصع البياض. وهو يقطن العديد من التحف والتماثيل الرخامية واللوحات المنقوشة والفسيفساء من كل صنف. وفي الصالة توجد خريطة للعالم دقيقة المعالم والخطوط، وعليها العواصم والمدن الملونة، وداره محط العديد من الزوار، حيث تجد العين راحتها، وتلقى الروح بهجتها، وتمتلئ المعدة بما لذ وطاب».



كذلك عرف نفس العصر أساتذة عمالقة في مجال التعليم وفن التربية، ومن هؤلاء العلماء على سبيل المثال لا الحصر نذكر فتورينو ده فلتري (De Feltre) الذي كان صاحب شخصية مرحة فكهة. وقد نادى فتورينو بضرورة الاهتمام بالتربية البدنية للشباب وأيضا الموسيقى؛ لأن العقل السليم في الجسم السليم. وقد لقيت مدرسته قبولا واسعا في كل ربوع إيطاليا، وقد تأثر به فيما بعد عدد كبير من مفكرى وكتاب إنجلترا من أمثال ولزى، والشاعر جون ملتون، والروائى شارلس دكنز، وغيرهم كثيرون.

أمام هذا التيار الجارف للحركة الإنسانية فى إيطاليا، وجدت العقلية الحاكمة فى الفاتيكان مسايرة روح العصر، ولو على مضمض منها، ففى سنة ١٤٤٧م اختير للعرش البابوى أحد رجال الدين المحبين للكلاسيكية، ألا وهو البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥م). كان نيقولا فى الأصل ابنا لرجل بسيط يعمل خادما يدق جرس الكنيسة. وقد أقبل الابن على تراث الأقدمين حتى دفعت به الأقدار ليجلس على عرش البابوية. وما إن جلس على الكرسي العتيق أحاط نفسه بكوكبة من «الإنسانين الجدد»، ثم أنشأ مكتبة الفاتيكان وزودها بالعديد من نفائس المخطوطات القديمة. ثم جاء بعد ذلك البابا بولس الثانى (١٤٦٤-١٤٧١م)، الذى كان مغرما باقتناء التحف القديمة والتماثيل البرونزية والأحجار الكريمة، وهو الذى أمر بترميم البواكى التى كان قد شيدها الإمبراطوران سبتيموس سقيروس وتيطوس. ويمثل البابا ليو العاشر قمة هذا التوجه الإنسانى الجديد (١٥١٣م)، وقد كان لتحدره من بيت مديتى فلورنسى أبلغ الأثر فى حبه للفنون الجميلة وعشقه للأداب الكلاسيكية.

ميكافيللى:

ويبدو أن معين فلورنسا لا ينضب، فمنها أيضا خرج نيكولو ميكافيللى (١٤٦٩-١٥٢٧م). انحدر ميكافيللى من أسرة فلورنسية متوسطة الحال، وبسبب ذكائه ودبلوماسيته الفائقة اختير ليكون سفيرا لبلده وهو فى الخامسة والعشرين من عمره. ثم أوفد بعد ذلك (سنة ١٥٠٠م) لمقابلة الملك الفرنسى نفسه، وبعدها صار نائبا لأمير فلورنسا سوردينى، الذى عهد إليه بتنظيم الجيش وإعداد الخطب للمناسبات العامة. وبعد أن أزيح سوردينى عن الحكم على يد آل مديتى بمعونة الأسبان، قبض على ميكافيللى وعذب بالسياط ثم طرد من فلورنسا. استقر ميكافيللى فى بلدة سان كاسيانو على بعد اثنى عشر ميلا من فلورنسا، وفيها انكب على الكتابة عن تاريخ فلورنسا، وفن الحروب، ثم أخرج كتاب «الأمير» (Princeps) أو (Principe) الذى طبقت شهرته الآفاق

(١٥١٣م). ويقع كتاب «الأمير» في ست وعشرين باباً؛ يعرض كل باب لموضوع

محدد:

- ١- الإمارة وكيفية تأسيسها وأنواعها.
- ٢- الإمارة (أو الإمارة) الوراثية.
- ٣- الإمارة المكتسبة.
- ٤- مملكة (إمارة) داريوس الفارسي وسقوطها على يد الإسكندر الأكبر.
- ٥- المدائن والإمارات التي يتم الاستيلاء عليها وكيفية حكمها وإدارة

شؤونها.

- ٦- الإمارات التي تفتح بقوة السلاح أو بسلاح الدبلوماسية.
- ٧- الإمارات التي تكتسب بضربة من ضربات الحظ أو بمعونة الأحلاف الخارجية.
- ٨- الأمراء الذين يصلون إلى الحكم عن طريق العنف.
- ٩- الإمارة التي تقوم على أسس دستورية.
- ١٠- كيفية تقييم السلطة في الإمارة.

١١- الإمارة وعلاقتها بالسلطة

الدينية (الكنيسة).

١٢- الميليشيات العسكرية وكتائب

الجند المرتقة.

١٣- الكتائب الوطنية.

١٤- كيف ينبغي على الأمير أن

يدبر شؤون العسكر.

١٥- الصفات المحمودة وغير

المحمودة في الأمير.

١٦- الكرم واليخيل عند الأمراء.

١٧- القسوة واللين، وهل الأفضل

أن يكون الأمير محبوباً من

رعيته أم مهيباً محوفاً بجانب

من قبل الرعية.



البابا جوليو الثالث





- ١٨- كيف يجمل بالأمير أن يصون كلمة الشرف .
- ١٩ ضرورة تجلب ما يجلب الأحقاد والضغائن على الأمير
- ٢٠ قيمة الحصون والقلاع بالنسبة لسلطة الأمير .
- ٢١ كيف يمكن للأمير أن يحقق لغاية ومهابة لشخصه .
- ٢٢ ملاحظ للأمير ومساعدوه .
- ٢٣ كيف يجب على الأمير أن يبعد منافقين عن ملاحظه؟
- ٢٤ لماذا فقد الأمراء الإيطاليون إدارتهم وعروشهم؟
- ٢٥ الأقدار وكيفية إدارة أزماتها الطارئة .
- ٢٦ الدعوة إلى تحرير إيطاليا من الاحتلال النمساويين .

والأمير الذي كان في محبة ميكافيلي هو القائد المنتظر الذي تمكنه طرد الأعداء الفرنسيين والاسبان من البلاد. وأيضا التصدي للأمير طوريه لعنانية لقوية. وهو من صرنا رادر لا يتحرج

رحلة لورنزو دي ميدتش إلى بيت المقدس



من استخدام القوة والبطش بل والخداع والتزييف كى يحقق هدف أمته، وذلك تحت شعار «الغاية تبرر الوسيلة». وهذا الأمير سياسى واقعى ينظر إلى الأمور من خلال زجاج شفاف لا غبار عليه. ويجب عليه الا يتوقع من العالم أكثر مما يعطيه إياه هذا العالم على قدر دهائه. وهو ليس على شاكلة الأمراء التقليديين الذين يشبهون أشباح القديسين، من أهل الكرامات والمعجزات.



والغريب فى أمر ميكافيللى أنه كان يرشح للإمارة الدوق سيزار بورجيا (١٤٧٦-١٥٠٧م) سيد فالنتينو. وسيزار هذا هو ابن شقيقة البابا إسكندر

السادس بورجيا (١٤٩٢-١٥٠٣م وقيل أيضا إنه ابنه)، الذى كانت مؤامراته وحياته الخاصة تزكم أنوف الشرفاء فى إيطاليا والغرب الأوروبى كله. وكان ميكافيللى قد أمضى بضعة أشهر فى معسكر سيزار كسفير لفلورنسا إلى القيصصر. ولمس الكاتب فى الأمير ما ينطبق على أميره المثالى: فلقد كان سيزار يستخدم من الأساليب ما يحقق أهدافه، دون وازع أخلاقى أو إنسانى، فلقد اغتال أخاه، ثم اغتال زوج أخته لوكريشيا، هذا بخلاف العديدين من خصومه.

لقد وجد صاحبنا فى شخص سيزار ضالته المنشودة؛ ذلك لأن ميكافيللى كان يعتقد (سامحه الله!) أن القيم الأخلاقية من شيم بسطاء الناس والضعفاء، أما الأمير فإنه ليس فى حاجة إلى هذه القيم فهو سيدها جميعا. ولكى يثير ميكافيللى مشاعر الإيطاليين لصالح أميره المرتقب، فإنه يسوق قصيدة لشاعر إيطاليا المفضل بترارك حيث يقول:

«فضيلة القوة سوف تسود

الرومان أهل البطولة . . . سلوا عنا الجدد

هم يزحفون . . . يزارون كزئير الأسود

الحمية فى قلوبنا كفعل الوقود

مجدك إيطاليا سوف يعود!»

وعلى التقيض من «أمير» ميكافيللى رسم لنا الكونت بالداسارى كاستللونى صورة مشرقة لرجل البلاط (Cortegiano) سنة ١٥١٦م، حيث نقابل رجلاً تلقى تعليماً راقياً، وتدرّب تدريبا رياضيا فى المعسكر. وهو إنسان محب للفن ويقدر القيم الجمالية، ولديه نصيب وافر من التراث اليونانى الرومانى ومن الأدب الإيطالى الحديث. وهو فوق هذا يمارس الرسم ويعزف الموسيقى، ويتمتع بروح مرحة ووجه متفائل بشوش. وقد ترجم هذا الكتاب إلى لغات أوروبية عديدة، وقام



السير توماس هوبى (Hoby) بترجمته إلى الإنجليزية سنة ١٥٦١م، كما أشاد به الشاعر جون ملتون وقال عنه: «إنه كتاب يعين المرء على أداء مهامه التى توكل إليه فى دقة ونزاهة وعدالة، سواء كان ذلك فى أوقات السلم أو زمن الحرب».

وإذا انتقلنا إلى عالم الفنون الجميلة نجد أن روح النهضة أدت إلى تمدد الفنان على الخطوط والطرز والألوان القوطية التى سادت فى العصر الوسيط. والتفت المصورون والنحاتون إلى آيات الفن اليونانى والرومانى يستلهمون منها الشئ الكثير، ثم ابتدعوا خطوطا ومساحات أكثر رحابة، وألوانا تبث البهجة فى النفس، مما أدى إلى ظهور مدرسة عبقرية لا مثيل لها فى تاريخ الفن الطويل.

جيوتودى بوندونى:

ولقد بدأت هذه المدرسة بريادة جيوتو دى بوندونى (١٢٦٦-١٣٣٦م)، المؤسس الحقيقى لفن التصوير الإيطالى لعصر النهضة. ويذكر عنه أنه كان صبيبا يرعى الأغنام فى الجبال، وقد عثر عليه الفنان سيمابوى (Cimabue) وهو يرسم على الحجر، فاقتاده معه إلى مرسمه، وراح يدربه حتى صار من الأفاض المعدودين. ولوحات جيوتو تفيض حيوية وحركة، ومن أشهرها لوحة بعنوان «فراش موت القديس فرانسيس الأسيسى»، وصورة للشاعر دانتي. وقد قام جيوتو بزيارة مدينة روما سنة ١٣٠٠م ليقوم بتصميم فسيفساء كنيسة القديس بطرس القديمة. وبينما كان يقوم بهذا العمل تشرب الشئ الكثير من آثار الفن الرومانى القديم فى كل بقعة من حوله.

فرا إنجليكو:

ثم لمع نجم الفلورنسى فرا إنجليكو (١٣٨٧-١٤٥٥م) الذى قيل: إنه كان يحرك فرشاته على لوحاته «والدمع ينهمر من عينيه، ولذا فقد جاءت لوحاته بلامح تشع روحانية، حتى وصفت بأنها «نوافذ تطل على الجنة». وبعده برز ماسكاشيو (١٤٠١-١٤٢٨م) الذى أبدع فى لوحته «طرده آدم وحواء من الجنة»؛ و«جايى الضرائب». أما بوتشيللى (١٤٤٤-١٥١٠م) فقد جسد الحوريات التى ورد ذكرها فى الأساطير القديمة، وربة الجمال فينوس.

وقائمة الشوامخ فى فلورنسا لا تنتهى، فهى تضم أسماء لامعة أخرى مثل فرا لى؛ ودومنيكو جيرالدانجو (١٤٤٩-١٤٩٨م)؛ ثم نأتى إلى أكثر الأسماء شهرة: مايكل أنجلو (١٤٧٥-١٥٦٤م)؛ وليوناردو دافنشى (١٤٥٢-١٥١٩م).

أيقونة «العذراء» جوتو



«الربيع» لبوتشيلي



مايكل أنجلو:

تتلمذ مايكل أنجلو في فلورنسا على يد كل من برتولدو، وجيرالدانجو، وقد لمس فيه أستاذاه عبقرية فذة وطاقة لا تعرف الحدود. وداعت شهرة أنجلو في كل مكان، وأخذ الفلورنسيون يشيدون بعبقريته في مجالسهم الخاصة والعامة، مما لفت إليه نظر أمير البلاد لورنزو دي ميدنشي، فاستدعاه إلى قصره واستقبله بالترحاب والتكريم. وفي القصر الأميري التقى مايكل أنجلو بمشاهير عصره من الكتاب والفنانين. وقد اهتم مايكل أنجلو بالجسم الإنساني وتفصيلاته الدقيقة.



ضريح
آل ميدنشي -
روما

متعللا فيما ذهب إليه بأنه إذ يبرز جمال الجسد الأدمى فإنه يؤكد للرائي عظمة الخالق في تشكيل خلقه على أحسن صورة. وقد اعتقد أنجلو بوجود علاقة ما بين هندسة الجسد الإنساني وبين المعمار، ولذا فإنه راح يتحدث عن القيمة الجمالية لما أسماه «العُرى الفنى» كنموذج له صفات جمالية تشريحية بعيدة عن كل ما يشير الفرائز الرخيصة والشعور بالخجل، كما هي الحال مع الجسد العارى العادى. كذلك كان من مقولات أنجلو أن الملابس عند المصور أو المثال تمثل عازلا يحول دون إبراز حركات الجسد ومشاعره وتعبيراته. ومن روائع مايكل أنجلو فى التصوير لوحة «الطوفان»؛ ولوحة «يوم الحساب»؛ ثم «قصة الخلق» التى زين بها سقف كنيسة سستين (Sistine). ومن روائعه فى النحت تمثال «الرحمة» (Pieta)؛ وتمثال داود؛ وتمثال موسى. وقد كان مايكل أنجلو فنانا متعدد المواهب، فهو مصور ونحات ومعمارى وشاعر ومهندس حربى؛ إذ إنه ساهم فى تصميم وتشييد تعزيزات الدفاع عن مدينة فلورنسا سنة ١٥٢٩م.



وهو إلى ذلك شاعر رقيق المشاعر، كتب عدة قصائد من بينها قصائد حب أفلاطونية لصديقتين هما: تاما سودى كاثاليرى، وفيتوريا كولونا. هذا إلى جانب بعض القصائد الغنائية التى تأثر فيها بالشاعر دانتي، وله قرابة خمسمائة رسالة بعث بها إلى الأقارب والأصدقاء ومشاهير عصره من أدواق وكونتات وأمرء.

ويشيد المتخصصون بإعجاز مايكل أنجلو فى نحت تماثيل تعبر عن معان مجردة كالليل والنهار ووقت الشفق والفجر، وبعضها كان يزين قبور آل مديتشى. ومن بين أعماله تمثال لم يكتمل عن «عبد يحتضر». وقد انفعل الشاعر هرمان كازاك عندما شاهد هذا التمثال، فنظم



«الطوفان» على سقف كنيسة سيستينا - مايكل أنجلو



قصيدة تصور فيها العبد التيسر يشكو حاله إلى صانعه مايكل أنجلو، ونسوق هنا بعضاً من معاني القصيدة بتصريف:

«يا مَنْ نحت من

الصخر

بعضاً في جسدي

أبهل إليك

اعفني من الرخام

من قالب الألم

أنا أبغى الحراك

أطلقني

الأغلالُ هي سامي

أيها الروحُ المبدعُ

صغ نفسي ثانية

صغها من معدنِ جلدي

اعفني من طوق الحديدِ

ولا تسَلِّ النحاسين عن ثمنِي

ثم سل عن صبيّة

كانت لي غاية الأملِ

أتراها بيعت في الهندِ

أم سبأها ملوك العجم؟

لكم أتمنى

لعربي المُستباح للآمم

أن ينصهر في الرُخامِ

يتواري كالجنين في الرحمِ

أيها الروحُ الذي سوى تمثالي

حطمني إلى رمادٍ - أحلني إلى تراب

أعدني إلى العدمِ



«عبد يحتضر» تمثال رخام - مايكل أنجلو

الحجرُ ينخرُ عظامي
وقلبك كالحجرِ
عنى فى صممِ
ارمنى فى الأعماقِ هيا
ألقِ الجبال على كتفيا
ثم وارنى الترابِ
فأنا الميتُ حيا.



سقف كنيسة سيستينا - مايكل أنجلو



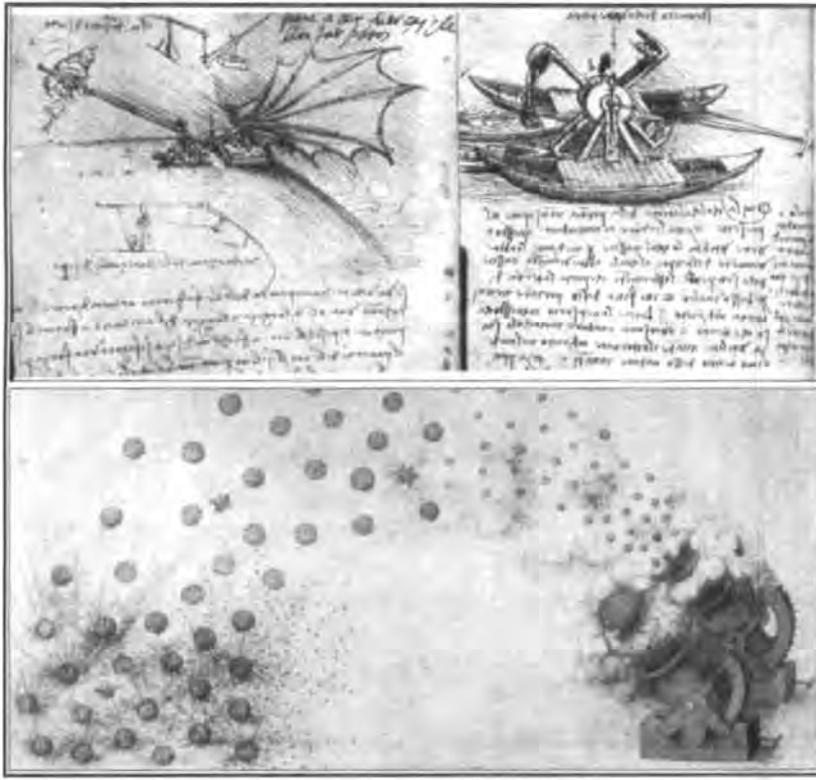
ليوناردو دافنشي،



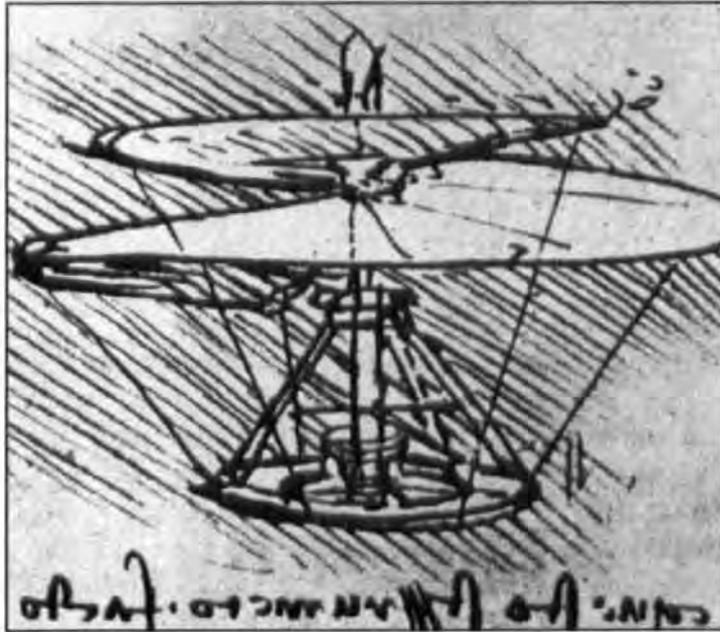
أما ليوناردو دافنشي فهو خير من يمثل العصر الذهبي للنهضة الفنية في إيطاليا. فلقد كان ليوناردو عالماً متعدد المواهب والاهتمامات، وكان صاحب نزعة علمية تجريبية سبق بها الكثيرين من علماء عصره. وقد ترك دافنشي لنا عشرات من المخططات والتصميمات الهندسية والمعادلات الرياضية. وله فوق ذلك بحوث في عوالم الطيران والتشريح، كما أنه صمم آلات لضخ المياه بالآلات الرافعة، ووضع أسساً لإقامة التعزيزات العسكرية الدفاعية، مع تصورات لمعدات ومقاتلات برية شبيهة بالدبابات الحديثة؛ هذا إلى جانب بحوث أخرى في عالم الطيور والتشريح.



الموناليزا ليوناردو دافنشي



رسوم لآلات حربية - ليوناردو دافنشي



رسم لمروحية - تصميم ليوناردو دافنشي

وهو في
التصوير ليس
له مثيل فقد
أخرج تحفة
الفن الجميل
التي تتحاكى
بها الأجيال
وتحاكيها وهي



لوحة الجيوكاندة أو الموناليزا،
وأيضاً لوحة «ليديا وطائر
البعج». وكانت أعماله تثير
إعجاب الخاصة والعامة ومن
بينهم أستاذه أندريا فروشيو
الفلورنسي. وقد طلب منه الأمير

فرنسيسكو سفورزا سيد ميلان أن
يصنع له تمثالاً، إيماناً منه بأن ليوناردو
هو أعظم نحاتي عصره. واستضافه
مشاهير السياسة والحكم في
قصورهم، من أمثال لودفيكو إل
مورو (Il Moro) والقيصر سيزار
بورجيا، والملك الفرنسي فرانسيس
الأول.

ورغم كل هذا كان ليوناردو
إنساناً متواضعاً، ووصف نفسه على
أنه «ليس مستحقاً لأن يسمى أديباً»
(Omo Senza Lettere)؛ ومن أقواله
المأثورة: «الحياة هي الفن، والفن مسرح
الحياة».

رافيل وتيتيان،



وسجل أهل الفن في إيطاليا لا يحصى ولا يعد في القرنين الخامس والسادس عشر؛ فإلى جانب الفنانين الذين وردت سيرتهم وأعمالهم كان هناك عمالقة آخرون من أمثال رافايل (توفي ١٥٢٠م) صاحب لوحة «مادونا»، والذي كان يعمل مع مايكل أنجلو في روما. وهناك أيضا جيورجيسوني، وباولو فيرونيزي، وتنتورتى، وتيتيان الذي أبدع فيما أبدع لوحتين بعنوان «الحب المقدس»، و«الحب المدنس». ولقد أثارت لوحات تيتيان الإمبراطور شارل الخامس وطلب منه أن يرسم له صورة بريشته، رافضاً أن يقوم أحد غير تيتيان من كبار الفنانين بتصوير ملامح صاحب الجلالة.

ولقد شارك هؤلاء الفنانون في تجميل قصور أمراء عصرهم لتحل محل القلاع والحصون الخشنة التي كانت سائدة في العصور الوسطى؛ وخير مثال نجده في قصر آل مديشى في فلورنسا، وقصر فارنزي في روما، وقيلا البابا يوليوس الثالث لإقامته الصيفية والمعروفة باسم «قيلا يوليانا». وفي سنة ١٤٨٤م اكتمل بناء بازيليكسا سان مارك في البندقية، ولعبت عبقرية المعماري الفنان بليني في مزج خطوط العمارة البيزنطية بالطرز الكلاسيكية ليخرج هذه التحفة الفريدة في العمارة على مر العصور.



ليوناردو دافنشي بريشته

الفصل الثالث النهضة فيما وراء جبال الألب



لم تكن بلدان أوروبا شمالي جبال الألب على صلة مباشرة بالتراث اليوناني الروماني؛ ولذا فإنها لم تشعر بالقطيعة مع الماضي الكلاسيكي كما كان



"مادونا" - رفايل سانزيبو

يشعر الإيطاليون طيلة العصور الوسطى. على أنه مع انتعاش روح النهضة في مختلف المناطق في إيطاليا، كان لابد لشعوب ما وراء الألب من ألمان وفلمنكيين وبرتغال وهولنديين وإنجليز وفرنسيين أن يفعلوا بهذا التيار الإنساني الدفاق. ولقد كان الفرنسيون أول شعوب أوروبا في الأخذ بروح النهضة بعد الإيطاليين؛ وذلك نتيجة لاحتكاك الفرنسيين بالإيطاليين من خلال حملات الملوك الفرنسيين على إيطاليا على عهد شارل الثامن ولويس الثاني عشر. وقد أخذ الملوك الفرنسيون المبادرة عندما استعانوا بالمعماريين والفنانين الإيطاليين في تشييد قصورهم الفخيرة على الطراز الكلاسيكي المتجدد الذي كان سائدا في إيطاليا؛ فلقد استقدم الملك فرنسيس الأول



الحب المقدس
والحب المدنس -
لوحة بريشة
تيتيان



العبقري ليوناردو دافنشي ليستفيد من خبراته في مختلف المجالات، وأنعم عليه بمنزل ريفي على مقربة من مدينة أمبواز، حيث قضى ليوناردو بقية حياته في آخر المطاف.

وانتشرت بعد ذلك عمارة «الشاتو» (Chateaux) في منطقة اللوار في فرنسا بفعل المؤثرات الإيطالية لتحل محل قلاع الماركيزات والبارونات الوسيطة. ومع هذا التطور أخذت منازل بسطاء الناس القديمة في الاختفاء لتحل محلها بنايات من الخشب ذات الطوابق المتعددة. كما شهدت المدن قيام المجالس البلدية ونقابات الحرفيين ومجالس الرعاية الاجتماعية وهيئات المطافي والدفاع المدني، ثم ظهرت المصارف والبنوك لتنتقل أوروبا من نظام بدائي شبيه بالمقايضة إلى انفتاح اقتصادي متطور.

رابليه:



إليزابيث الأولى

وفي مجال الآداب أخذ الفرنسيون بأسباب الحركة الإنسانية، وأبرز من يمثل هذا الاتجاه في فرنسا: فرنسوا رابليه (١٤٩٤-١٥٥٣م)؛ وبيير رونسارد (١٥٢٤-١٥٨٥م). وكان رابليه في صدر شبابه قد انخرط في سلك الرهبانية ثم ما لبث أن هجرها ليدرس الطب في جامعة مونبلييه (١٥٣٠م)، حتى حصل على درجة الدكتوراه سنة ١٥٣٧م. ولقد أعجب به أمير ولاية لانجي (Languedoc) وليم دي بيلاي وشقيقه جان؛ وجعله الأخير طبيباً خاصاً له. ثم قاما سوياً بزيارة إلى إيطاليا.

وفي سنة ١٥٣٢م أخرج رابليه كتاباً بعنوان (Pantagruel) (بانتاجوريل) يدور حول تشنة الأطفال الصغار ودور الأم في تربيتهم، وهي لا تخلو من السخرية من أساليب معاملة الصغار في عصره.

وفي سنة ١٥٣٤م أخرج كتاباً آخر بعنوان «جارجانتوا» (Gargantua) يهاجم فيه علماء اللاهوت الرهبان، وما يروجونه بين الناس من وساوس وشعوذات لا تتفق مع العقل السليم. واتبع هذا بكتاب ثالث بعنوان «دير ثيليم» يهاجم فيه الرهبنة والتبتل (عدم الزواج)، الأمر الذي أثار عليه حفيظة الكثيرين في الدوائر الفرنسية المحافظة. ولما أن أخرج «الكتاب الثالث»

(Tiers Livre) سنة ١٥٤٦م يمجّد فيه سلطان العقل ومنهج الشك قبض عليه وأودع السجن، ولكنه هرب. وفي سنة ١٥٥١م نشر «الكتاب الرابع» (Quart Livre) الذي كان أكثر جرأة من مؤلفاته السابقة في التنديد بالمؤسسات الدينية القائمة آنذاك. وقد ختم رابليه حياته الأدبية بكتابين آخرين هما: «العاصفة في البحر»، و«الجزيرة المدوية» (L'Isle Sonante) وفيهما دفاع عن حرية إرادة الإنسان في تقرير مصيره بدلا من القدرية والاتكالية التي كان يشر بها أهل الدين في العصور الوسطى، هذا إلى جانب هجوم شديد على السلطة البابوية.



رونسارد،

أما بير رونسارد، فقد خدم في بلاط الملك الفرنسي، وقام برحلة إلى أسكتلنده. وكان قد تتلمذ على يد أستاذ مرموق اسمه دورات (Dorat) في الكوليج دي كوكيت. وقد نبغ رونسارد في الشعر، فنظم العديد من الأناشيد الغنائية في مديح فرنسا، وقد تأثر فيها بالشاعرين الرومانيين هوراس وكاتولوس. وفي سنة ١٥٥٢م أصدر ديوانا بعنوان «أشعار في الحب» مهداة إلى سيدة تدعى كاسندرا. وقد اعترف الجميع بعبقريّة رونسارد الشعرية وتوج «أميرا» لشعراء عصره. وقد أحاطه الملك الفرنسي شارل التاسع برعايته، وكذلك فعلت شقيقة الملك مارجريت. ولرونسارد قصائد أخرى تحت الرعية على الولاء لحامل التاج ورمز البلاد، ولعل هذا ما قرّبه من البلاط الفرنسي ثم البلاط الإنجليزي؛ فلقد أعجبت به الملكة ماري ستوارت وأمرت بصرف معاش سنوي له. كذلك بعث رونسارد بعدة قصائد للملكة إليزابث الأولى، التي لقيت إعجابا زائدا في بلاط لندن. ورغم أن رونسارد كان يعاني من اضطراب في سماعه يصل إلى حد الصمم، إلا أنه ظل ينظم القصيد حتى آخر حياته، ومن أبياته الشهيرة: «حتى ولو شاخت بك السنون .. حبيبتى!» (Quand vous serez bien vieille).

روجر بيكون،

وفي إنجلترا كان العالم روجر بيكون (١٢١٠-١٢٨٣م) يمثل إرهاصا مبكرا للروح الإنسانية مثلما كان دانتى في إيطاليا. فلقد تصدى روجر لفضح جهالة عصره، ودعا إلى تحرير العقل من أغلال الكهانة والسحر والخرافة. وروجر بيكون هو الذي شن هجوما شرسا على الفيلسوف أرسطو متهما إياه بالدوغماتية، ومعيبا على أتباعه الانصياع الأعمى لمقولاته لا لسبب إلا لأنه قد مضى في تاريخ الفكر على أنه «المعلم الأول». ثم هاجم بيكون ما أسماه بـ«أصنام» العقل من أوهام وتقاليد وغرور بعض العلماء والفلسفين. كما تنبأ بأفاق عصر جديد تسود فيه الآلة ومراكب الفضاء لتغيير طرائق الناس برا وبحرا وجوا.

تشوسر:



ومن بعده جاء جيوفري تشوسر (١٣٤٠-١٤٠٠م)، الذي كان يعمل في خدمة البلاط الملكي في لندن، كما شارك في حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا ووقع أسيراً في أيدي الفرنسيين وافتدى سنة ١٣٦٠م. وقد قام تشوسر بعدة زيارات لإيطاليا وفلاندرز، والتقى بمشاهير الأدباء والشعراء من أمثال بترارك وبوكاشيو وفرواسار، وتأثر بهم في كتاباته. وكان تشوسر واسع الاطلاع على الآداب القديمة وتأثر كثيرا بالشاعر الروماني أوفيد (٤٣ ق م - ١٨م).

وجيوفري تشوسر هو أعظم شعراء عصره، وهو الذي صاغ اللغة الإنجليزية بالصيغة التي نعرفها اليوم. وله أعمال كثيرة: «الوردة»، و«الشكايا الثلاث»، و«شكوى الملهوف للرحمة»، و«وفاة بلانش»، و«ترويلوس وكرسيديا»، و«بيت الشهرة»، و«أسطورة النساء الفضليات»؛ ثم «حكايات كنتبري». وفي «حكايات كنتبري» (Canterbury Tales) أقاصيص كثيرة وممتعة كان يتسلى بها الحجاج الإنجليز الوافدون من كل صوب لزيارة مقبرة توماس بيكيت كبير أساقفة إنجلترا الذي كان قد اغتيل في قلب الكاتدرائية على يد رجال الملك هنري الثاني (١١٥٤-١١٨٩م). وقد تأثر تشوسر في حكاياته الممتعة بالكاتب الإيطالي بوكاشيو صاحب «الديكامرون»، وأيضاً بألف ليلة وليلة الوافدة على الصالونات الأدبية من الشرق. وهذه الحكايات تعرض لحياة ونوادير بسطاء الناس ومشاكلهم اليومية والبيئية، شاملة فيما تشمل الفرسان وأهل الريف والطباخين ورجال القانون والرهبان والتجار والأطباء والبحارة والراهبات في شاعرية فذة تأثر بها أدباء إنجلترا فيما تلا من عصور.

توماس مور:

ومن الأعلام الذين برزوا في إنجلترا بعد تشوسر، كان السير توماس مور (١٤٧٧-١٥٣٥م) ثم فرنسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦م)، حتى نصل إلى العبقري وليم شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦م): كان توماس مور دارساً نهماً للآداب الكلاسيكية، وقد عكف هو وصديقه إرازاموس الهولندي، الذي كان كثير التردد على دار مور والإقامة فيها، على ترجمة أشعار لوسيان (القرن الثاني م). وكان هذا العالم الإنجليزي شديد التواضع ويعيش عيشة بسيطة قريبة إلى حياة «الرواقين» القدامى. وقد كتب تاريخاً عن الملك ريتشارد الثالث أفاد منه وليم شكسبير كثيراً في مسرحيته عن نفس الملك. وفي ديسمبر ١٥١٦م انتهى مور من كتابة كتابه الشهير بعنوان «يونوبيا»

باللغة اللاتينية. واليوتوبيا تعني «المدينة الفاضلة»؛ وهي مدينة مثالية جاءت على منوال «جمهورية» أفلاطون. وأهل هذه المدينة محصنون ضد زدائل أوروبا المعروفة، فأهلها جميعا يشاركون في إنتاج طعامهم دون تفرقة، وهم يتمتعون بنفس الشركة «الطوباوية» في المسكن والتعليم والرعاية الصحية، وقانون المدينة يقدر الحريات ويضع صالح المدينة العام فوق المصلحة الفردية الأنانية. ولاحق أن توماس مور كان مفكرا صادقا مع نفسه، فلقد كان نشطا معتدلا المزاج ويحترم الدفء الأسرى.



غير أن هذا العالم الجليل سرعان ما اصطدم مع ملك إنجلترا الأبد هنري الثامن، الذي كان قد تزوج ست مرات وأعدم زوجاته الواحدة تلو الأخرى، ولما أن تصدى توماس مور لهذا الملك الساذي المزاج، أرسل به الملك إلى برج لندن الرهيب تمهيدا لإعدامه. وفي زنزانته سجل توماس مور خواطره على قصاصات من نفاية الورق خطها برمد الفحم وبعث بها إلى ابنته الحبيبة مرجريت وبي. وتفصح هذه الرسائل عن شجاعة نادرة تحلى بها الرجل حتى عندما جاء الجلاد لإعدامه (١٥٣٥م).

فرنسيس بيكون؛

أما فرنسيس بيكون فقد شن هجوما على فلسفة العصور الوسطى وعلى الجمود العقلي الذي يكبل التقدم العلمي. وهو لا يقبل «بالماهيات القبليّة» (A Prioris)، وإنما يؤمن بضرورة تحرير العقل تماما من المسلمات المتواترة قبل التنقيب عن الحقائق من خلال الملاحظة والتجريب العلمي للوصول إلى النتائج العلمية عن طريق الاستقراء.



وبيكون هو الذي وضع كتابه الأشهر «المنهج الجديد» (Novum Organum) (١٦٢٠م)، والذي راح يُقد فيه

فرنسيس بيكون



منهاج أرسطو في البحث عن الحقيقة. وهو صاحب كتاب «أطلنطا الجديدة»، وهي أيضا جزيرة مثالية أشبه ما تكون بمعبد للعلم، يعيش عليها الجميع في سلام ووثام، ينعمون بمنجزات بحوث علمائهم في شتى المجالات الزراعية والصناعية، دون أن يسمحوا للعالم الخارجي بأن «يلوثهم» ماديا أو معنويا. وأهل الجزيرة عباقرة إلى حد «تخليق فصائل جديدة في عوالم الحيوان والنبات»، ولديهم «أفران حرارية تعطي حرارة تعادل طاقة الشمس»، ولديهم «ينابيع خاصة» يطلقون عليها اسم «عيون الجنة»؛ لأن مياهها تعالج جميع الأمراض وتطيل الأعمار.

وقد أنتج بيكون إلى جانب ذلك عدة مقالات هامة يعالج فيها قضية «الخير والشر»، وسبل «تقدم العلم».

يذكر أن بيكون كان شديد الإسراف وكثير الاستدانة من الأصدقاء، الأمر الذي عرضه للمحاكمة والسجن في برج لندن.

شكسبير:



وليم شكسبير

أما وليم شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦م) فهو العبقرى الذى جعل من الكلمة نغما موسيقيا، ومن المسرحيات الشعرية لوحات لا مثيل لها من قبل أو من بعد. ولقد جنت عبقرية شكسبير على كل معاصريه من الشوامخ، إذ بدأ الجميع بجواره كالأقزام. وقد ابتدع شكسبير لغة خاصة صارت تقرن باسمه على مر العصور. ولقد عمل

شكسبير كممثل ومبدع للمسرحيات وصاحب مسارح أيضا. وقيل عنه أنه كان يمتلك المقدرة على ملاحظة أكثر الأشياء تفاهة في حياة الناس جنبا إلى جنب مع أشدها خطورة. وهو خبير بالسلوك

الإنسانى المتقلب بين الوفاء والغدر، وما يترتب على ذلك من عواقب إن سلبا أو إيجابا. وفى الجانب العاطفى يعالج شكبير قضية الصراع بين القلب والعقل، وما ينجم عن طغيان العاطفة على الرشد. وهو يعطى شخوص رواياته كامل الحرية فى اختيار مصائرهم، وإن كان واعيا طيلة العرض أن أمور هذه الدنيا تسير وفق الناموس الإلهى. وروايات شكبير تروق لجميع الأذواق والمستويات، وخيال الشاعر العبقرى شمولى محيط لا تجده فى أى شاعر آخر.



ولقد تأثر شكبير بمسرحيات الشاعر الرومانى بلاوتوس (٢٥٤-١٨٤ ق م) وتأثرا واضحا. ولقد أمتع شكبير العالم بروائع «كوميديا الهفوات» (١٥٩٢م)، و«تيطوس أندرونيكوس» (١٥٩٣م)، و«روميو وجوليت» (١٥٩٥م)، و«حلم ليلة صيف» (١٥٩٧م)، و«تاجر البندقية» (١٥٩٧م)، و«هنرى الرابع» (١٥٩٧م)، و«زوجات وندسور المرحات» (١٦٠٠م)، و«هاملت» (١٦٠٢م)، و«عطيل» (١٦٠٥م)، و«الملك لير» (١٦٠٦م)، و«ماكبث» (١٦٠٦م)، و«كوروليانوس» (١٦٠٧م)، و«أنطونى وكليوبترا» (١٦٠٧م).

ولقد ترجمت أعمال شكبير إلى لغات العالم، الذى أجمع نقاده على أن وليم شكبير يقف فريدا كالتاج فى مفرق الشعراء فى كل العصور.

إرازموس:

وصلت الروح الإنسانية إلى الأراضى المنخفضة، وخير من يمثلها الهولندى دزدريوس إرازموس (١٤٦٦-١٥٣٦م)، حيث تلقى إرازموس تعليمه فى مدينتى دقمتير (Devemter) وستاين (Steyn)، ثم قصد إلى باريس ولوقان وإكسفورد وكمبردج وبازل وفربورج وعدة مدن إيطالية يبحث حينا، ويقوم بالتدريس فى جامعاتها أحيانا أخرى. وكان صديقا مقربا للسير توماس مور الإنجليزى، وكان ينزل ضيفا عليه فى داره فى لندن.

ولقد ذاعت شهرة هذا العالم الهولندى فى كل الأروقة العلمية الأوروبية، وتابع الناس هجومه الساخر على مفاسد الكنيسة الرومانية ومثالب الرهبة فى كتاب بعنوان: «مدح الحُمو» (Laus Stultitiae) الذى ظهر سنة ١٥١١م. وفى كتابه الآخر الأكثر جرأة بعنوان «حديث من القلب» (Colloquia Familiaria) يخاطب معاصريه بوضوح وبساطة أن يحرروا عقولهم من الشعوذة والخزعبلات وأن يتجهوا إلى تحديات العصر وروحه الجديدة. وقد سجل إرازموس كل مؤلفاته بلسان لاتينى رصين إسهاما منه فى إحياء لاتينية العصر الكلاسيكى الخالية من التبرير



والسوقية. كما ترك إرازموس أكثر من ثلاثة آلاف رسالة تفصح عن روح حرة مستقلة وحس إنساني وإعجاب محب للمعرفة والحق، وومن تأثروا به كان وليم شكبير نفسه.

سرقانتيس:

أما في إسبانيا فإننا نلتقى بروائي فذ هو ميغيل دي سافدرا سرقانتيس (١٥٤٧-١٦١٦م). ولد سرقانتيس لأب كان يمارس الطب والجراحة وإن لم

يكن طبيبا مؤهلا، كما كانت الحال في كل بلدان أوروبا طوال العصور الوسطى. وقد تلقى بعض الدروس على يد واحد من تلاميذ إرازموس الهولندي واسمه لوبيز ده خويوس. وكان سرقانتيس قارئاً نهما في مختلف فروع المعرفة، كما كان كثير الترحال والسفر خاصة إلى إيطاليا. وقد شارك سرقانتيس في معركة لبانتو البحرية ضد الدولة العثمانية، وفيها أصيبت يده اليسرى بثشوبه شديد وصل إلى العاهة، كما شارك مع أخيه رودريجو في معارك أخرى في جزيرة كورنو ونقارينو، حتى وقع أسيراً في أيدي العثمانيين وسبق إلى الجزائر سنة ١٥٧٥م، وقد حاول الهروب عدة مرات ولكنه فشل في جميع محاولاته حتى دفعت له القدية وأطلق سراحه سنة ١٥٨٠م.

وفي مدريد أخرج أولى رواياته بعنوان «لا جاليانا» (La Galeata) مع بعض الكتابات الأخرى الأقل شأنا. ولقد عانى سرقانتيس كثيرا من الفقر، وضاعف من تعاسته أنه تزوج من فتاة أصغر منه بثمانية عشر عاما. وقد شغل عدة وظائف فكان جامعا للضرائب ثم مسئولاً عن الإمدادات للأرمادا (الأسطول) الإسباني. وعندما ازدادت ديونه وعجز عن سدادها زج به في السجن أكثر من مرة.

وفي سنة ١٦٠٥م وهو يقيم في بلدة قالالا دوليد أخرج الجزء الأول من رائعته «دون كيكخوته» (Don Quixote). وقد حققت له هذه الرواية شهرة لا تضارع، وإن لم تعد عليه بعائد مادي يذكر. وأتبع هذا العمل بعدة قصائد رمزية ساخرة وبعض المسرحيات القصيرة حتى أنتج الجزء الثاني من «دون كيكخوته» الذي نشر بعد وفاته بعام (١٦١٧م)، وكان قد انتهى من مقدمته قبل وفاته بأربعة أيام فقط (توفي في ٢٣ أبريل ١٦١٦م، وهو نفس اليوم الذي توفي فيه وليم شكبير).

وتعد رواية «دون كيكخوته» عملا متميزا بكل المقاييس، فهي تحكى حكاية رجل تقادم في العمر اردحم عقله بقراءات مكثفة في أدب الفروسية، أصابته وهو في خريف العمر بهوس أشبه ما



أوروبا، ورأى فيها الإنجليز والفرنسيون والألمان دلالات ملحمة شبيهة بملاحم هوميروس، إلى جانب مواقف ولقطات رومانسية تحرك وريد القلب.

ولقد كانت «دون كихوته» مصدر إلهام الكثيرين من رجالات الأدب فيما بعد، من أمثال هنرى فيلدنج، وستيرن، وسمولت، وشارلس ديكنز، وفلوبير، ومارك توين، وديستوفسكي، وكافكا.

جوتنبرج:

وعندما نصل إلى ألمانيا نجد أنها قد قدمت الفضل الأكبر في إنماء روح النهضة وإذكاء وهجها، وذلك باختراع الطباعة، وصاحب هذا الاختراع الفذ هو يوحنا جوتنبرج من بلدة ميتر الذي توصل إلى هذا الإنجاز سنة ١٤٥٠م. وترتبط الطباعة بقصة صناعة الورق التي كان الأوروبيون قد تعلموها من العرب الذين كانوا بدورهم قد تعلموها من أهل الصين، فلقد نشأت صناعة الورق في الصين منذ القرن

الثاني قبل الميلاد. وفي سنة ٧٥١م عندما كان الصينيون يشنون حملة على مدينة سمرقند، نجحت الكتائب العربية في رد الصينيين على أعقابهم وأوقعت بعدد منهم كأسرى حرب. وكان من بين الأسرى الصينيين بعض الأفراد الذين كانوا يعملون في بلادهم بصناعة الورق، ومن هؤلاء تعلم العرب سر الصناعة. ثم نقل الأوروبيون صناعة الورق عن العرب من عدة قنوات أهمها المصانع التي استولوا عليها أثناء حرب «الاسترداد» الإسبانية.

ألبرت دورير





بعد هذا صار الإيطاليون أمهر صناع الورق في أوروبا، وعنهم نقل الألمان حتى خرج جوتنبرج باختراعه للطباعة. وقد وصلت الطباعة إلى إيطاليا سنة ١٤٦٥م، وإلى فرنسا سنة ١٤٧٠م، وإلى إنجلترا سنة ١٤٧٧م، وإلى استكهولم سنة ١٤٨٣م، ثم إلى مدريد سنة ١٤٩٩م. ومع نهاية القرن الخامس عشر كان قد تمّ طباعة قرابة تسعة ملايين من الكتب جلها من التراث الكلاسيكي. ويعترف الجميع بفضل الألمان في هذا الصعيد، حتى أن الطباعة باتت تعرف باسم «الفن

الألماني». هذا، وقد انتشر الطابعون الألمان وناشرو الكتب في كل العواصم الأوروبية يؤسسون دور المطابع ويسوقون ما أفرزته المطابع من مطبوعات. ومن المشاهير في هذا كان كوبرجر من بلدة نورمبرج، وفروبن من بازل، وألبرت دورير (Durer)، وآل فيشر.

كما أبدع الألمان في مجال التصوير، ومن الأسماء اللامعة كان الفنان هولبين (Holbein) الذي استقدمه البلاط الملكي في لندن للإفادة من فنه ذائع الصيت.

ومع ازدهار الطباعة باتت القراءة في متناول الجميع، وأخذت اللغات المحلية الوطنية تحل محل اللسان اللاتيني الذي كانت له الهيمنة حتى ذلك الوقت. وجاءت ترجمات الفلاسفة القدامى عن العربية هي وشروحها لتصل أهل عصر النهضة بالتراث القديم بصلة مباشرة. فلقد أفادت الجامعات بوجه خاص من هذه الترجمات، ومع اختراع الطباعة صار اقتناء الكتب أمرا ميسرا للطلاب بعد أن كانوا يعانون الأمرين من فك طلاسم المخطوطات، ناهيك عن أسعارها التي لم تكن في مقدورهم. ويذكر عن الإيطالي الدوس مانوتيوس (١٤٤٩-١٥١٤م) أنه أول من أسس دارا للطباعة في مدينة البندقية، ويقول في مذكراته أنه كان أشد تلاميذ عصره تعاسة بسبب سوء أحوال الكتيبات المدرسية السائدة في صدر شبابه وخاصة في خطها الملغز الذي يتفر الدارس من الدراسة؛ ولذا فإنه قد نذر نفسه وجهده لإخراج طباعات أنيقة للكتب المدرسية حتى لا يصاب التلاميذ والطلاب بنفس السأم الذي كان هو قد قاسى منه الأمرين. كذلك أخرجت داره عمدة الأعمال الكلاسيكية، وصار في مقدور البندقي العادي أن يستمتع بقراءة إلياذة هومر وهو يتهادى في جندوله على سطح مياه البندقية في حال من الاسترخاء والمتعة الخلوية العقلية.

وقد كان للطباعة فضل آخر في التخفيف من غلظة النبالة الأوروبية، إذ صار من التقاليد المحمودة للماركيزات والأدواق والبارونات أن يلتحقوا بالجامعات، وأن يقبلوا على اقتناء المطبوعات، وأن يزينوا قصورهم بلوحات فنية وتقنيات أثرية. وهكذا انتهى العصر الذي كانت فيه الكتابة حكرا على رجال الدين والمحترفين من الكتبة.



ولعل خير مثال على هذا التحول الخطير ما نطالعه عن جون تبتوفت (Tiptoft) أمير مقاطعة ورشستر (١٤٢٧-١٤٧٠م) الذي كان من كبار جنرالات الملك الإنجليزي إدوارد الرابع، فلقد عرف عن جون هذا أنه غليظ القلب خشن اللسان غضوب الطبع، حتى لقبه المعاصرون باسم «جزار الملك»، على أنه بعد أن قدر له أن يطالع شيئاً من الآداب القديمة في كلية باليول، وبعد أن اختلط بعلماء من بادوا وفلورنسا، خفت غلظته وقلت شرسته على خلق الله.

ولقد نبغ الألمان أيضا في الموسيقى، وكما صارت الطباعة «فنا ألمانيا»، باتت

الموسيقا خاصة ألمانية بالمثل. هذا إلى جانب لفيف من العلماء الألمان المبرزين في فروع الفلك والرياضيات والجغرافيا والتاريخ. ومن الأعلام الألمان نيقولاس كريبز (Krebs) (١٤٠١-١٤٦٤م) الذي عشر على مسرحيات بلاوتوس مطمورة في خزائن أحد الأديرة، هذا إلى جانب كتاب له بعنوان: (De Docta Ignorantia) يهاجم فيه رجعية رجال الدين الألمان ويسخر من الجهالة والغيبات الخرافية. ويرى بعض النقاد أن كلا من العالم البولندي كوبرنيكوس والفيلسوف الفرنسي ديكارت والفيلسوف الألماني هيغل قد تأثروا بأرائه.

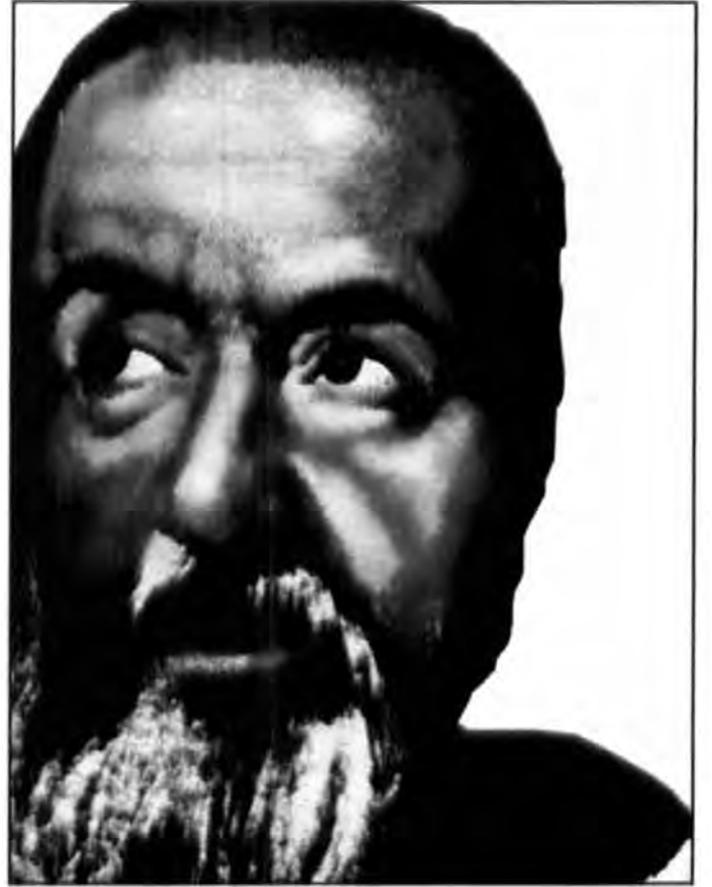
لقد آتت النهضة أكلها، وغدت الطبيعة مصدر إلهام للعلماء كي يفتشوا في جوفها عما تخفيه من أسرار، ففي الكيمياء مثلا باتت محاولات القدامى في تحويل المعادن الرخيصة إلى معدن الذهب من سقط المتاع، وأقبل الكيميائيون الجدد على معاملهم للبحث عن العقاقير وتخليقها لمدواة مختلف الأمراض. ومن هؤلاء النابهين الطبيب الفلمنكي أندرياس فيزاليوس الذي استقدمه الملك الإنجليزي شارلس الثاني ليصبح طبيبه الخاص. وفي سنة ١٥٤٣م نشر فيزاليوس كتابا حجة عن «بنية الجسم الإنساني» (On the Structure of the Human Body).

كوبرنيكوس:

ومن الأشياء التي تستوجب التسجيل أنه في نفس العام الذي نشر فيه فيزاليوس كتابه هذا في التشريح نشر البولندي الفذ نيقولاس كوبرنيكوس نظريته (١٤٣٧-١٥٤٣م)، التي قلبت المفاهيم القديمة في علم الفلك رأسا على عقب. لقد ظل العلماء حتى مجيء كوبرنيكوس يعتقدون بصدق نظرية الجغرافيا اليونانية القديمة بطليموس بأن الأرض هي مركز الكون، وبأن الشمس وسائر الأجرام السماوية الأخرى تدور حول الأرض. وتكمن عبقرية كوبرنيكوس أنه - دون معونة من أجهزة تلسكوبية أو غيرها - توصل بحساباته الدقيقة إلى أن الأرض هي مجرد كوكب من عدة كواكب أخرى تدور جميعا حول الشمس، وأن الليل والنهار يتعاقبان كنتيجة لدوران الأرض حول محورها، وليس بسبب دوران الشمس حول الأرض كما كان يظن.

جاليليو

ولقد تأكدت مصداقية نظرية كوبرنيكوس بالدلائل القاطعة الحاسية والتجريبية التي خرج بها العالم الإيطالي جاليليو جاليلي فيما بعد (١٥٦٤-١٦٤٢م)، في مجال الميكانيكا، وعن المجموعة الشمسية، وقانون الحركة، وعن التركيب الذري للمادة. وهو الذي طور التلسكوب الذي ابتكره الهولنديون سنة ١٦٠٩م ومكنه من رؤية الجبال التي تكسو سطح القمر، ولقد زجت الدوائر الكنسية بجاليليو في السجن ولم تطلق سراحه إلا بعد أن وقع على وثيقة يتراجع فيها عن كل آرائه.



جاليليو جاليلي

الطباعة في فرنسا



الفصل الرابع الكشوف الجغرافية

٤٣

كان الأوروبيون في العصور الوسطى من خاصة وعمامة لا يعرفون شيئا يذكر عن جغرافية وتاريخ بلدان الشرق الأقصى. ويكفى للتدليل على صدق ما نذهب إليه أن الرأس الكبرى في الغرب اللاتيني البابا أوربان الثاني عندما وقف في مؤتمر كبير مولت بفرنسا سنة ١٠٩٥م يدعو الأوروبيين إلى حمل سلاحهم والزحف نحو الشرق لم يكن ليميز بين العرب والفرس والسلاجقة الترك. وظلت صورة الشرق البعيد باهتة غامضة في الغرب الأوروبي إلى أن نشر الرحالة البندقي ماركوبولو (١٢٥٤-١٣٢٤م) أخبار رحلته إلى أقاصى شرق آسيا على الناس.



ماركو پولو



كان ماركو پولو قد رحل مع والده وعمه فى رحلتهم الثانية إلى الصين بقصد التجارة، وفى ذلك الوقت كانت القارة الآسيوية تخضع لإمرة المغول وحوافر خيلهم التى تشبه الشياطين فى الكر والفر. وكان الخان المغولى الجبار جنكيزخان (أى قاهر العالم) قد نشر الخراب والدمار فى بلاد الصين وخراسان وإيران. وبعد وفاته سنة ١٢٢٧م، قام واحد من أحفاده يدعى هولاكسو بالهجوم على مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وقتل من الخلق الأبرياء قرابة المليون من البشر، بل وأغرق نفائس المكتبات وكنوزها فى نهر دجلة كى يصنع من كتبها قنطرة يعبر عليها جنوده الزاحفون، حتى إن لون ماء دجلة اختلط بين الأسود من مداد الحبر والأحمر من دماء الضحايا، وكان ذلك الحدث الأشأم سنة ١٢٥٨م.

قوبيلای خان:

وفى سنة ١٢٥٩م صار قوبيلای خانا أكبر للمغول، وبقي فى الحكم لمدة ثلاثين عاما. وفى عهده دانت الصين لحكم المغول، ثم هجر الخان عاصمة المغول القديمة فى قراقورم لیسكن فى العاصمة الجديدة التى شيدها فى الصين وهى مدينة كامبالوك أو بكين.

وفى بكين حط الفتى ماركو پولو ووالده وعمه الرحال بحثا عن الحرائر والأحجار الثمينة والبهارات للتجارة فيها بعد عودتهم إلى مدينتهم البندقية. ولقد أعجب الخان قوبيلای بالفتى ماركو پولو وأبقاه فى خدمته فى البلاط لمدة سبعة عشر عاما. وبعد هذه الإقامة الطويلة، عاد ماركو پولو لیسجل مذكراته وينشرها على أهل أوروبا. وهكذا سمع الأوروبيون لأول مرة عن المدن الكبرى فى بلاد الصين، ومنها مدينة هانجشو التى قال ماركو پولو فى وصفها:

«هانجشو هى أكبر مدن العالم حجما وأكثرها سكانا وأعظمها نبلا . . وهى تموج بالتجارة من كل فج . . وثراؤها وافر لا يمكن وصف قدره الحقيقى . . والمدينة آمنة تماما ليل نهار، إذ يقف الحراس بالمرصاد لمنع السرقة وجرائم القتل أو الشغب . . وشوارعها ممهدة بالحجارة والقرميد المهندم . . ويتوافد على سوق المدينة ما يصل إلى خمسين ألفا من البشر دون اختناق أو مزاحمة . . وقنواتها مغطاة بقنطرات عديدة مرتفعة تمخر السفن من تحتها وأشرعتها فى كمال ارتفاعها . . وللمدينة نظام بريد قوامه ألفان من الخيل، وعشرة آلاف محطة خدمة بريدية».

أما عن الخان قوبيلای وأسلوب معيشته فنظالم الآتى فى وصف ماركو پولو:



«عندما يقد الخان الأعظم قويلاي للإقامة بعض الوقت في واحد من قصوره العديدة، تنصب له ولحاشيته ولأهل بيته الخيام. وخيمة رجال البلاط تسع لعشرة آلاف من الفرسان للإقامة فيها، أما خيمة الخان فهي آية في الفخامة والأبهة، وفي جزء منها يستقبل الزوار، وفي ركن داخلي يقع مخدعه الخاص، وهذه الخيمة الإمبراطورية مكسوة ومزدانة بالنقوش الجميلة الألوان والأشكال، وبهوها مكسو بأرقى جلود وفراء الحيوانات. وأرضها مفروشة بأفخر البسط المجلوبة من بلاد الروس والعجم». ولقد أدخل المغول معهم إلى الصين آلتهم الموسيقية التي تشبه «العود» ويطلقون عليها اسم «هو-تشن» (Hu-Ch'in)، وآلة المزمار.

لقد فتحت رحلة ماركو پولو أذهان الأوروبيين على ثراء بلدان الشرق الأقصى وخيراته، وليس من المبالغة في شيء أن نقول أن النشاط التجاري بين أوروبا وبلاد الشرق الأقصى قد شهد انتعاشا ملحوظا بعد أن اطلع القوم على ما ورد في رحلة ماركو پولو من أخبار وتفصيلات. وكانت قوافل التجارة من أوروبا إلى الشرق تتبع الطريق البري الذي عرف باسم «طريق الحرير» عبر مدينة القسطنطينية وبغداد وصولا إلى الهند فالصين. وكانت التجارة مع الشرق في القرن الخامس عشر في أغلبها في أيدي تجار البندقية، غير أن استيلاء السلطان العثماني محمد الثاني «الفاتح» على مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣م قد أصاب تجار الغرب الأوروبي بالخوف من معاودة الترحال عن طريق البر.



الأسطول البرتغالي من لشبونة يغزو العالم



وهنا تحفز الغرب للبحث عن بدائل لهذا الطريق البري عبر البحار للوصول إلى بلاد الحرير والتوابل. وقد جاءت الخطوة الأولى من جانب البرتغال التي كانت تبحث لنفسها عن موارد جديدة تعينها على حال الفقر الذي كانت تكبده، وخاصة أنها لم تستطع أن تنافس مدينتي البندقية وجنوة في السيطرة على تجارة حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد سنحت الفرصة للبرتغال في وقت كانت فيه إنجلترا وفرنسا مشتبكتين في حرب شرسة دامت مائة من السنين. وكان الإسبان بدورهم في حرب لا تهدأ مع مغاربة الشمال الإفريقي ومع أنفسهم داخل إسبانيا أيضا. وبذلك كان البرتغاليون أول من بدأ حركة الكشوف الجغرافية فيما وراء البحار.

ومن باب الإنصاف والحق لابد للمؤرخ الموضوعي من أن يؤكد على أن حركة الكشوف الجغرافية قد حملت بين أضلاعها نفس الأفكار الصليبية والدوافع العدوانية والذهنية على «العسل والدين» في أنهار الشرق. وتحت هذا القناع الزائف أخفى البرتغاليون والإسبان والهولنديون والإنجليز والفرنسيون والألمان والظليان من بعدهم الدوافع الحقيقية لهذه «الإمبريالية» المبكرة. وهكذا ضربت شعوب آمنة شرقا وغربا بأخديد والنار، ونهبت مقدراتهم وثرواتهم، كى تجد كل قوة أوروبية لنفسها «مكانا تحت الشمس» على حد تعبير العصر.

هنري الملاح

بدأت حملات البرتغال للكشوف الجغرافية على يد واحد من البيت المالكة هو الأمير هنري الملقب «بالملاح». وكان هنري قد شارك في حملة صليبية ضد الشمال الإفريقي، ووقتها راح يفكر في الدوران حول قارة إفريقيا، أملا في الوصول إلى الهند عن طريق البحر كبديل للطريق البري الذي صار تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية القوية. وقد أحاط الأمير هنري (١٤١٥-١٤٦١م) نفسه بمجموعة من الجغرافيين وعلماء الفلك والخرائط ومشاهير البحارة ومصممي وبناء السفن.



الأمير هنري الملاح

كما أن شقيقه دون بيدرو (Don Pedro) أهداه نسخة من «رحلة» ماركو بولو، كى يسترشد بها في مغامراته البحرية. وقد بنى الخبير بناءً على أمر هنري عددا من السفن



المتطورة التي تبهر لا بدفع المجاديف وإنما بشراعات ثلاثة، ووصلت زنة بعض السفن مائتين من الأطنان. وبهذا نجح هنري في الكشف عن جزر كنازي وجزر الأخرى المنتشرة قبالة الشواطئ الإفريقية في المحيط الأطلنطي وهي جزر ماديرا، والأزور، والرأس الأخضر (Cape Verde)، وقد اتخذها البرتغاليون - فيما بعد - نقط انطلاق لرحلاتهم الكشفية جنوبا وغربا.

وكانت بعض الخرافات لا تزال عالقة بأذهان الناس؛ منها على سبيل المثال أن من يسبح جنوبا أبعد من نقطة رأس باغادور (Bajador) سوف يسود لون جلده ثم يموت. إلا أن العلماء المحيطين بالأمير هنري أقنعوه بأن هذه الخرافة لا

أساس لها من المصدقية؛ ومن ثم أمر رجاله بالإبحار جنوبا حتى وصلوا إلى خليج غينيا. وأينما حل البرتغاليون كانوا يرسمون خرائط للمواقع التي يرسون فيها بمراكبهم، ثم ينقضون على موارد تلك البلاد وخاصة الذهب فينهبونه. وأما الوزر الأكبر الذي اقترفه البرتغاليون ضد الأفارقة هو أنهم كانوا يختطفون أبناء وبنات تلك البلدان ويبيعونهم في أسواق النخاسة.

دياز

ولما أن مات الأمير هنري (١٤٦١م)، عهد الملك البرتغالي يوحنا الثاني إلى كبار التجار البرتغاليين لمتابعة رحلات الكشف ووضع الخرائط. وقد حدث أن واحدا من هؤلاء التجار هو بارتولوميو دياز، قد انخرط بمركبه جنوبا أكثر مما كان يتوى لرحلته، فوجد نفسه يدور حول القارة الإفريقية فيما يشبه الدوامة، ثم ارتطمت سفينته برأس القارة فأطلق على البقعة اسم «رأس العواصف»، وهي نفس البقعة التي سميت فيما بعد «رأس الرجاء الصالح» (Cape of Good Hope) من باب التيسيم والفعال الحسن، وقد عزم بارتولوميو على المضي بحشا عن الهند، ولكن بحارته وقد أعياهم الحر والمرض تمردوا عليه، فاضطر إلى العودة إلى البرتغال (١٤٨٧م).

فاسكو داجاما

بعد ذلك بعشرة أعوام (١٤٩٧م) أبحر مغامر آخر هو فاسكو داجاما على أربع سفن، مزودا بمؤونة تكفي الحملة لمدة ثلاث سنوات. ولقد قطعت الرحلة للدوران حول إفريقيا شهورا خمسة، واستغرقت الرحلة إلى ثغر



فاسكو داجاما

كاليكوت على الساحل الغربى للهند عاما كاملا. وبعد هذا النجاح، عاد جاما محملا بكنوز من بلدان الشرق، وإن كان قد فقد ثلث رجاله فى الرحلة. وقد لقب جاما نفسه بلقب «أدميرال المحيط الهندى»، فى حين أن ملك البرتغال تلقب بلقب «سيد البحار والتجار وفاتح الحبشة وفارس والهند».



حقق البرتغاليون ثروات طائلة من الخيرات التى جلبوها من بلاد الشرق الأقصى، فقاموا ببناء أسطول قوى لحماية مصالحهم التجارية الجديدة. ولكى تبقى التجارة حكرا فى أيديهم، عمل البرتغاليون على إقامة محطات وقواعد بحرية فى مواقع مختلفة لتأمين مصالحهم فيما وراء البحار.

لقد جاء كشف طريق رأس الرجاء الصالح، وما ترتب عليه من تحول التجارة إلى هذا الطريق البحرى بدلا من الطريق البرى عبر القسطنطينية والبحر الأحمر ضربة قاصمة لاقتصاد الدولة العثمانية وللسلاطين المماليك فى مصر، ولخلفائهم أهل البندقية سادة التجارة فى حوض البحر الأبيض المتوسط؛ ولذا فإن هذه القوى الثلاث التى أصيبت بالضرر، حشدت أساطيلها للتصدى لأسطول البرتغال فى مياه الهند، وكان الأسطول البرتغالى تحت قيادة الأدميرال ألميدا (Almeida) الذى اشتبك مع أسطول الخلفاء عند بلدة ديو الساحلية على سواحل الهند، وانتهت المعركة البحرية بانتصار البرتغاليين؛ نظرا لأن سفنهم كانت أكثر تطورا وصمودا من سفن الخلفاء (١٥٠٩م).

وبهذا النصر للبرتغال، صاروا أصحاب اليد العليا على البحار الشرقية لمدة قرن كامل من الزمان لا ينازعهم فى هذه السيطرة أحد.

ألبوكيرك

عين ملك البرتغال واحداً من رجاله الأشداء يدعى ألبوكيرك فى منصب «نائب الملك» فيما وراء البحار. وأقام هذا النائب مقرا له فى مدينة جوا شمالى ميناء كاليكوت الهندى، ثم هجم من قاعدته على مدخل الخليج العربى واستولى على جزيرة هرمز التى تتحكم فى الملاحة فى البحر العربى. وقد أرسل ألبوكيرك بسفنه لنقل سلع التجارة من الصين، حتى باتت تجارة البهارات حكرا على البرتغال.

ولقد هلل البرتغاليون فرحا بإمبراطوريتهم العائمة فى الشرقين الأوسط والأقصى، حتى إن الشاعر البرتغالى خامونيس (Camoens) قال: «لو أن فى الدنيا بقاعا أخرى مجهولة لقام أهل البرتغال باكتشافها».



عادت الكشوفات الجغرافية على البرتغال بمكاسب مادية لم يكونوا يحلمون بها، وذلك على حساب شعوب آسيا. كذلك حمل التجار البرتغاليون معهم إلى جانب بضاعتهم أفكاراً جديدة من الهند والصين، ساهمت في إنعاش العقلية البرتغالية بقيم شرقية روحانية وجمالية لم تكن معروفة عند أهل الغرب، إلى جانب تأثيرات معمارية وضحت في بنايات كثيرة في البرتغال.

على أن أحوال البرتغال أخذت تسوء في العقدين الأخيرين من القرن السادس عشر؛ فلقد مات الملك سباستيان دون وريث سنة ١٥٨٠م، فانتهز فيليب الثاني ملك إسبانيا الطموح الفرصة وضم مملكة البرتغال إلى تاجه.

الفصل الخامس العالم الجديد

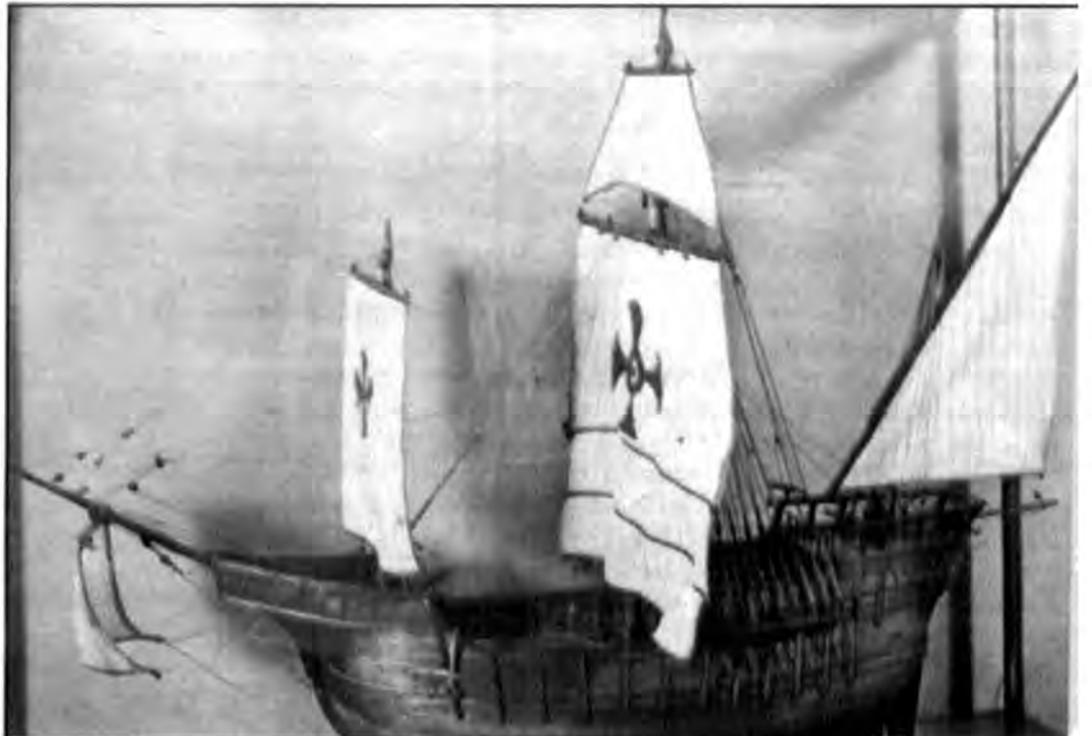


كانت فكرة كروية الأرض وإمكانية الوصول بحرا من جهة الغرب إلى بلاد الهند تراود خيال الكثيرين من الجغرافيين والفلكيين في عصر النهضة، ومن بين هؤلاء كان العالم الإيطالى توسكانيلى . ويذكر أن المغامرين من أهل الشمال الأوروبى المعروفين باسم «الفايكنج» كانوا يصارعون أمواج المحيط الأطلنطى متجهين غربا فى قواربهم الطويلة حتى وصل بعضهم إلى شواطئ مجهولة على الجانب الآخر من المحيط، دون أن يدركوا حقيقة ما وصلوا إليه، على أن ذكريات هذه المغامرات «الملحمية» قد طويت فى بحور النسيان .

وفى عصر النهضة تزامن التفكير فى عبور المحيط الأطلنطى مع تقدم فى علوم الجغرافيا والفلك وابتكار وتطوير آتى البوصلة والإسطرلاب، نقلا عن العرب .

كولومبوس،

كان أهل مدينة جنوة الإيطالية سباقين فى الاستفادة من هذه المعلومات والاختراعات، وراحوا يعدون العدة لعبور جبل طارق لترقية نشاطهم التجارى . وقد برز من بين أبناء جنوة بحار مغامر اسمه كرسطوفر كولومبوس، الذى كان شديد الثقة بفكرة العالم توسكانيلى عن كروية



نموذج للسفينة
«سانتا ماريا»



الأرض، وبإمكانية الوصول إلى بلاد الشرق الأقصى عبر المحيط الأطلنطي، وعرض كولومبوس خطته في عبور الأطلنطي على ملك البرتغال، ولكن المشروع قوبل من البلاط البرتغالي بفتور شديد.

وبعدها قصد كولومبوس إلى بلاط ملكة وملك إسبانيا في كل من قشتالة وأرغونة أملا في تمويل حملته الكشافية. وقد رحبت الملكة إيزابيللا ملكة قشتالة بمشروع كولومبوس، ومن بين ما أعلنته للملكة تعبيرا عن امتنانه أنه «سوف يحول شعوب آسيا إلى الكاثوليكية»؛ وهذا ما يؤكد الروح الصليبية لحمالات الكشوف الجغرافية.

تكونت حدة كولومبوس من ثمانية وثلاثين بحارا على ظهر ثلاث سفن تقود المسيرة معهم سفينة سانت ماريا التي بلغت حمولتها مائتي طن.



المستكشفون البرتغاليون - نصب تذكاري

- على رأسهم كولومبس



وأبحر الجميع فى أغسطس لسنة ١٤٩٢م من ميناء بالوس (Palos) على أمل أن يصل إلى مرماء على الجانب الآخر من العالم فى بضعة أسابيع. وبعد الإبحار من جزر كنارى أمضت الرحلة شهراً كاملاً دون بارقة توحى بالرسو أو الوصول. وأصيب الجميع بالفتور واليأس وخاصة بعد أن نفذت المؤن ومياه الشرب، وكان البحارة على وشك التمرد والفتك بكولومبوس الذى قادهم إلى هذه المغامرة «المجنونة والانتحارية». وفجأة وهم على هذه الحال من اليأس ظهرت فى السماء بعض الطيور ترفرف فوق الصواري، فتجدد الأمل فى قلوب الجميع. وفى الثانى عشر من أكتوبر ١٤٩٢م لاحظت من بعيد شواطئ بعض الجزر (هى جزر البحر الكاريبى)، وفى غمرة من الحماس والفرح رسى الجميع على بر الأمان. وكان أول ما قام به كولومبوس أن رفع علم مملكة قشتالة على تلك الجزر (جزر البهاما). ثم تحرك كولومبوس ليصل مع رجاله إلى أراضى ما عرف فيما بعد باسم أمريكا الوسطى، التى ضمها أيضاً إلى التاج الإسباني. وفى العام التالى لهذا الكشف عاد كولومبوس إلى إسبانيا محملاً بالذهب والحيوانات الغريبة والطيور زاهية الألوان واثنين من أهل البلاد (الهنود الحمر). ثم أصدر التاج الإسباني مرسوماً بتعيين كولومبوس نائباً ملكياً على هذه الأراضى المكتشفة الجديدة.

ولم يدرك كولومبوس حتى وفاته أنه قد اكتشف عالماً جديداً، بل ظل يعتقد أنه قد وصل إلى السواحل الشرقية لقارة آسيا والهند؛ ولذا فإنه أطلق على سكان هذه المناطق اسم «الهنود الحمر» وهو المسمى الذى لصق بهم منذ ذلك التاريخ. وانسحب نفس الشئ على جزر البحر الكاريبى التى أطلق عليها اسم «جزر الهند» الغربية.

وقد نشط كولومبوس ورجاله فى البحث عن كنوز الذهب التى قيل أن البلاد مليئة بجبال منها، ولما لم يعثر على القدر الكافى المنشود، قام بشحن سكان البلاد الأصليين (الهنود الحمر) فى سفنه لبيعهم فى أسواق النخاسة. وبعد فترة من سوء الإدارة والفساد وقهر الهنود الحمر، استدعى كولومبوس إلى إسبانيا، حيث مات فى ظروف غامضة لا نعرف أسرارها.

أمريجو فسيوتشى،

وفى سنة ١٤٩٩م رافق مغامر فلورنسى اسمه أمريجو فسيوتشى إحدى الرحلات الإسبانية اللاحقة إلى الأراضى التى اكتشفها كولومبوس، وأعلن للعالم أن ما وصل إليه كولومبوس عالم جديد يقع بين قارة أوروبا وبلاد البهار فى الشرق، وعليه فإن هذا العالم الجديد قد سمي باسم أمريجو (أو أمريكو)، وهكذا ولدت أمريكا.



بعد هذا ببضع سنين ظهر الملاح البرتغالى المشهور ماجلان (١٤٨٠-
١٥٢١م)، واسمه الاصلى هو فرناو دى ماغلاس (Fernaõ de Magalhães)
الذى عندما التحق بخدمة البلاط الإسباني صار يعرف باسم فرناندو دى
ماجلانس (١٥١٣م). وقد اضطلع ماجلان بعدة رحلات بحرية فى بداية الأمر،
كما شارك مع بنى جلدته البرتغاليين فى معركة ديو البحرية فى المحيط الهندى
ضد أسطول البندقية والسلاطين المماليك سنة ١٥٠٩م. كما شارك أيضا فى

الاستيلاء على جزيرة ملقا سنة ١٥١١م، وفى حملات البرتغال ضد المغرب سنة ١٥١٣م، وفيها
أصيب بجرح عميق. ولما أن رفض ملك البرتغال رفع قيمة معاشه السنوى، دخل فى خدمة البلاط
الإسباني. فى ذلك الوقت كان الخلاف بين البرتغال وإسبانيا على أشده، رغم أن البابوية كانت قد
تدخلت فى هذا النزاع وأقنعت الطرفين على توقيع معاهدة صلح سنة ١٤٩٤م قُسم العالم الجديد
بمقتضاها بين الطرفين بخط وهمى وسط المحيط الأطلنطى بحيث يصبح لإسبانيا السيطرة على
الأراضى الواقعة غربى هذا الخط، ويصبح للبرتغال الهيمنة على الأراضى الواقعة شرقه.

وفى سنة ١٥١٣م وكل شارل الخامس ملك الإسبان إلى ماجلان مهمة ضم أراضٍ جديدة
فى العالم الجديد للتاج الإسباني، وزوده بخمس سفن لكل سفينة قبطانها وبحارتها الذين بلغوا
٢٨٠ بحاراً. وهذه السفن كانت تحمل أسماء: فيتوريا، وترينيداد، وأنتونيو، وكونسبسيونى،
وسانت إياجو. وبدأت رحلة ماجلان فى ٢٠ سبتمبر ١٥١٩م من جزر كنارى حتى وصلت خليج
ريودى جانيرو، فمصب نهر ريودى لاپلاتا، وأمضى الجميع فصل الشتاء فى خليج سان يوليان.
ثم حدث أن تمرد بعض البحارة على ماجلان وأعلنوا العصيان، ولكنه وأعوانه المخلصين نجحوا فى
قمع هذا التمرد بطريقة عنيفة، وقد تحطمت السفينة سانت إياجو فى خضم هذا التمرد.

وفى الحادى والعشرين من أكتوبر ١٥٢٠م عبر ماجلان ورجاله مضيقاً فى أقصى جنوب
قارة أمريكا الجنوبية مستغرقاً فى هذا العبور شهراً كاملاً. وقد عرف المضيق فيما بعد باسم «مضيق
ماجلان»، وفيه وقع عصيان آخر، فقرر قبطان السفينة أنتونيو العودة بسفينته إلى إسبانيا.

وفى الثامن والعشرين من شهر نوفمبر ١٥٢٠م على ظهر السفن الثلاث الباقية ولج ماجلان
إلى المجهول اللانهائى الاتساع. ولما أن لاحظ هدوء مياه هذا المحيط الكبير أطلق عليه لفظ
«باسيفيك» (Pacífico) الذى يعنى الهدوء، ومنه جاءت التسمية: المحيط «الهادى» مقارنة بخشونة
أمواج المحيط الأطلنطى. وفى المحيط الهادى نفذت مؤن البحارة وطال الإبحار فأصيب العديدون



ماجلان

من الرجال بمرض الإسقربوط. ودام الحال على هذه الدرجة من سوء حتى إن البحارة أخذوا يأكلون الديدان والفئران ونشارة الخشب في موكب مبحر يانس لمدة ثمان وتسعين يوما.

وفي السادس من مارس ١٥٢١م

رست الرحلة في جزيرة جوام (Guam).

حيث أكل البحارة وشربوا ثم حملوا معهم المؤن الكافية، ثم وصل ماجلان بعد ذلك إلى جزيرة لادرون وبعض الجزر الأخرى التي أطلق عليها اسم ملك إسبانيا فيليب الأول فصارت تعرف باسم «الفيليين». وفي واحدة من هذه الجزر وهي جزيرة ماكتان وقع اشتباك بين الأهالي والبحارة الوافدين



٥٤

عليهم. وقد قتل ماجلان في هذا الاشتباك (٢٧ أبريل ١٥٢١م).

لم يبق من رجال ماجلان إلا ١٣٠ رجلا، ولم يبق من السفن إلا سفينة واحدة هي فيتوريا (معناها «النصر»). وعندها قرر القبطان خوان سباستيان دل كانو - الذي كان قد هجر سفينته «كونسيوني» التي نخرتها الديدان - أن يستقل السفينة المتبقية فيتوريا ومن بقي من الرجال وثلاثة عشر من أهالي الفلبين للعودة إلى إسبانيا.



رسم لسفينة ماجلان



وسارت رحلة العودة من المحيط الهندي إلى رأس الرجاء الصالح إلى المحيط الأطلنطي حتى وصلت مدينة إشبيلية في الثامن من سبتمبر ١٥٢٢م، ولم يبق على ظهر «فيستوريا» سوى سبعة عشر بحارا وأربعة من أهالي الجزر المكتشفة.

وهكذا أثبتت رحلة ماجلان أن الأرض كروية بالفعل، وأن ما عثر عليه كولومبوس هو عالم جديد لا صلة له بالشرق الأقصى.

في خلال ذلك قامت رحلات بحرية أخرى للكشف عن الشمال الأمريكي على يد الإخوة كابوت (Cabot) وهم من مغامري أهل جنوة، الذين بدأوا الرحلة من ميناء برستول الإنجليزي ووصلوا إلى جزيرة نيوفوندا لاند، لتبدأ بعد ذلك قصة الصراع بين الإسبان والإنجليز والفرنسيين في التكاالب على أراضي أمريكا الشمالية.

الهنود الحمر:

أما الإسبان فقد توغلوا في قلب أمريكا الجنوبية والوسطى، حيث اكتشفوا حضارات الهنود الحمر في المكسيك وبيرو. والهنود الحمر قد وفدوا في الأصل من آسيا من مناطق منغوليا وسيبيريا عبر مضيق بهرنج وخطوا رحالهم في أمريكا، وذلك في أعقاب العصر الجليدي منذ ألوف السنين. كما أن جنسا آخر كان مستقرا في أقصى شمال القارة الجديدة هم الإسكيمو الذين درجوا على العيش في تلك المناطق الجليدية.

وكان الهنود الحمر يعيشون حياة البداوة، ويمارسون الصيد والرعي في الجزء الغربي من القارة، في حين أن قبائل هندية أخرى في الجزء الشرقي كانت مستقرة في القرى، ومن هذه القبائل جماعة «إيروكوا» (Iroquois) وقبيلة «الجونكن» (Algonkin). أما في المنطقة التي يطلق عليها اسم كاليفورنيا اليوم، فقد كانت تسكنها قبيلة بوبلو (Pueblo) الذين كانوا مهرة في صناعة الفخار وإقامة المباني الحجرية ونسج الأقمشة. ولكن أرقى هذه القبائل حضارة كانت جماعات المكسيك التي عرفت باسم «ناهوا» (Nahua) وكانت تضم عدة قبائل مثل «شباشاس» (Chip-chas)، و«مايا» (Maya)، وكانت لهم معابد وتمائيل وقصور ونقوش للآلهة، وإن كانوا لم يتعرفوا بعد على صناعة المعادن. كذلك يذكر عن هذه القبائل أنها كانت تعرف المقاييس والساعات الشمسية، وكانت لهم دراية بالفلك.

جماعة الأزتک:

وفي سنة ١٥١٩ ق م كانت قد حلت في المكسيك جماعة مهاجرة من الشمال هي قبيلة «الأزتک» (Aztec)، وهي التي غلبت على قبائل المايا هناك وفرضت عليهم أسلوب حضارتها ومعيشتها.

وكانت الأزتک على علم بصناعة الورق وبالكتابة، وكانوا يقدمون لأنبيئهم أضحيات بشرية كقرابين. وفي سنة ١٥١٩ م وصل القائد الأسباني هرناندو كورتيز إلى مرسى فيرا كروز، وأمر رجاله بإحراق مراكبهم حتى لا يفكروا في العودة إلى إسبانيا، ثم هجم على بلاد المكسيك. ومع أن ملك الأزتک قد رحب بالغازي الأسباني بأن قدم على شرفه أضحية من البشر، إلا أن كورتيز أطلق رجاله في البلاد ينهبون ويذبحون الأهالي، بعد أن أوقع بمضيفه الملك «مونتيروما» (Montezuma) أسير حرب. وقد استمر النهب والسلب والتقتيل لمدة ثلاث سنوات حتى دانت له كل القبائل، وبعدها أرسل كورتيز إلى ملك إسبانيا يرف إليه أنه «قد ضم إلى تاجه من الأراضي أكثر مما تركه له أجداده»، ولقد نهب الإسبان مناجم المكسيك من فضة وذهب وشحنوها إلى إسبانيا.

قبيلة الإنكا:

وفي المكسيك علم الإسبان أن قبيلة الإنكا في بيرو تملك تلالاً من الذهب، وقيل لهم أن شوارع عاصمتهم «كوزكو» (Cuzco) مرصوفة بالذهب، وكانت قبيلة الإنكا على درجة مميزة من الحضارة، فكانوا يزرعون الذرة والقطن ويصنعون أجود أنواع الفخار، وكانوا يعبدون قرص الشمس، ويؤلهون ملوكهم ويلقبونهم بلقب «إنكا» ومعناها «ابن الإله». وإلى جانب مناجمهم



نحت في الصخر - حضارة «مايا»



من الفضة والذهب كانت لديهم قطعان كثيرة من حيوان اللاما الذي كانوا يستخدمونه في حمل الأثقال .

بيزارو:

وعندما هجم الإسبان على بيرو بقيادة «بيزارو» (Pizarro) وفرسانه الأشداء على ظهور خيولهم، أصيب الأهليون بالفرع من منظر الخيل والفرسان المقنعين خلف خوداتهم ودروعهم، فخيّل إليهم أنهم أمام «فرسان من الجن لهم أربعة أرجل!» وكان بيزارو سفاحا شرسا عنيدا لا يعرف معنى للرحمة، فأطلق يد رجاله سبع سنين لإخضاع بيرو، إلى أن لقي حتفه في شغب نشب بين الغزاة الإسبان أنفسهم، أغلب الظن على تقسيم الغنائم!

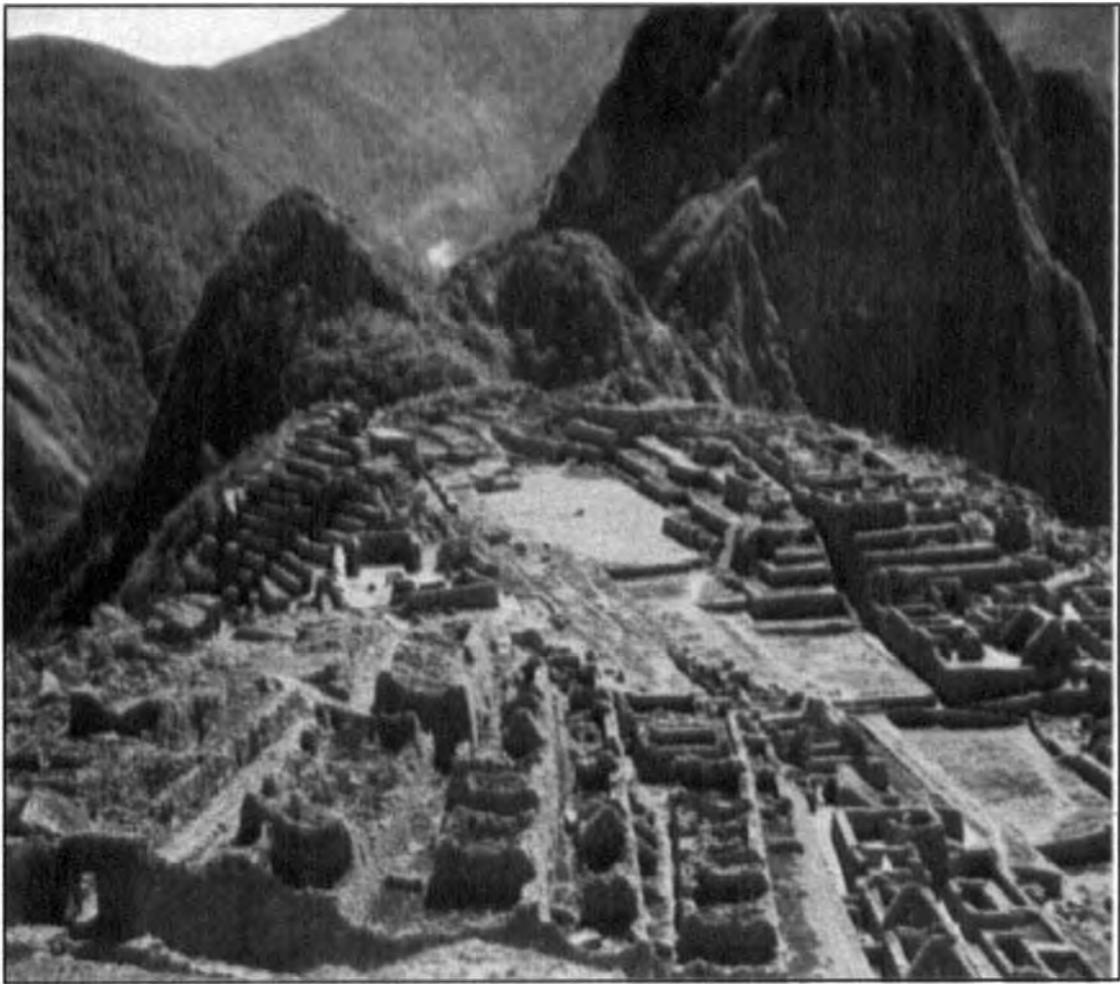
والحق أن تاريخ كورتيز وخلفه بيزارو يجعلنا نؤكد عكس ما قد تواتر في سجلات التاريخ الأوروبي بأن «المدنية الإسبانية قد غلبت على الهمجية» ونقول بأن «الهمجية الأوروبية قد تجت على شعوب آمنة متحضرة»، والأمثلة للتدليل على حكمنا كثيرة، فمثلا غدر من قبل كورتيز بملك الأزتك، قام بيزارو بدعوة ملك الإنكا واسمه آتاهوالبا (Atahualpa) إلى اجتماع معه، ثم قبض عليه واشترط كى يطلق سراحه أن يفدى نفسه بحجرة كاملة من الذهب، وقد وفى الملك وعده من الذهب، ورغم ذلك فقد حكم عليه بيزارو بالإعدام!

لقد كان تاريخ الإسبان فى أمريكا الجنوبية سلسلة من حلقات الغدر والكذب والخداع وسفك الدماء البريئة. وتحول أصحاب الأرض من الهنود الحمر إلى عبيد يعملون سخرة تحت وطأة السياط فى استخراج الفضة والذهب من المناجم، ولقد هلك آلاف البشر فى هذه السخرة الآدمية،

إلى حد أن قرى بأكملها أقدمت على الانتحار الجماعى هروبا من جبروت الإسبان وسادتهم من عتاة الجنزالات، وبعد ذلك جلب الإسبان آلافا من العبيد من قارة إفريقيا ليشاركوا الهنود الحمر فى التعاسة والمذلة.

رسم للعمل فى المناجم





أطلال مدينة الإنكا



هرم من حضارة الأزتيك



وحدث ولا حرج عن الأمراض الخبيثة والسرية التي نقلها الأسبان والبرتغاليون معهم من أوروبا إلى شعوب بكر لم تكن تعرف هذه الأمراض من قبل. كذلك فرض الإسبان على شعوب أمريكا الجنوبية العقيدة الكاثوليكية بالتهديد والوعيد!

أما المستعمرات الإنجليزية في العالم الجديد فقد قامت على الوجه التالي :

بدأت هجرة الإنجليز للاستيطان في العالم الجديد في السنوات الأخيرة من

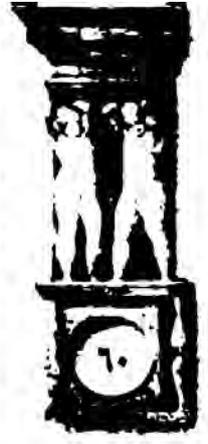
القرن الخامس عشر، وكان أول رواد إقامة المستعمرات في أمريكا على حساب أهلها من الهنود الحمر إنجليزي يدعى السير والتر رالي (Raleigh) الذي وضع النواة المبكرة لمستعمرة فرجينيا (Virginia) التي جاء اسمها تخليداً للملكة إنجلترا العذراء (Virgin Queen) - إليزابيث الأولى (1533-1603م).



تمثال ذهبي
من حضارة
الإنكا

وفي أبريل سنة 1607م أبحر عدد من المهاجرين الإنجليز على نفقة «شركة لندن التجارية» وذلك بمقتضى ميثاق من الملك جيمس الأول، واستقر هؤلاء المهاجرون في رقعة أطلقوا عليها اسم جيمس تاون تكريماً لاسم الملك جيمس الأول. وفي نفس الآونة كان نفر من فقراء الإنجليز الكاثوليك قد هربوا من إنجلترا إلى هولندا خوفاً من اضطهاد الكنيسة الإنجليزية لهم، ولكنهم لم يجدوا غايتهم في هولندا، ففرروا الهجرة والاستيطان في أمريكا. ونظراً لكثرة تجوال وترحال أفراد هذه الجماعة من بلد لآخر، فقد أطلق عليهم المعاصرون لقب «الآباء الحجاج» (Pilgrim Fathers). وقد عاد هؤلاء «الحجاج» إلى

مواطنهم في إنجلترا، حيث انضم إليهم عدد آخر من فقراء المزارعين، ثم عقدوا اتفاقاً مع شركة إنجليزية تجارية لنقلهم على سفنها دون نفقات مقابل أن يعمل هؤلاء المتقولون في العالم الجديد لحساب هذه الشركة لمدة سبع سنوات كاملة تسديداً لما عليهم من نفقات وديون. وكان عدد هؤلاء «الحجاج» ١٠٢ من الأشخاص، وقد حطوا الرحال في نوفمبر ١٦٢٠م، حيث أسسوا مستوطنة لهم باسم بليموث (Plymouth).



وعلى مقربة من بليموث كان عدد آخر من الإنجليز المعروفين باسم «البيوريتان» (Puritans) أي الغلاة في أمور الدين إلى حد التزمّت، قد أقاموا لأنفسهم مستعمرة في العالم الجديد في ماساشوستس (Massachusetts). وهؤلاء «البيوريتان» كانوا من أبناء الطبقة الوسطى تحت قيادة جون ونثروب (Winthrop)، الذي عمل على ضم مستوطنة بليموث إلى مستعمرة ماساشوستس في ولاية واحدة، وإن كان هذا لم يتحقق إلا سنة ١٦٩١م.

هذا، وقد ظهر من بين أبناء ماساشوستس الباكرين قس ناثان اسمه روجر وليامز (Wil-liams) الذي هاجم سياسة البيوريتان المتعسفة ضد الهنود الحمر أصحاب الأرض الأصليين؛ ولذا فإن زعماء البيوريتان قرروا ترحيله إلى إنجلترا، ولكنه هرب من أيديهم سنة ١٦٣٦م بمساعدة الهنود الحمر وخمسة من رفاقه نحو الجنوب، وأقام هذا الناصر مستعمرة له ولرفاقه باسم رود آيلاند (Rhode Island).

وقد شهد عام ١٦٣٤م قيام ثلاث مستعمرات جديدة:

واحدة عند مصب نهر بوتوماك (Potomac) هي مستعمرة ماري لاند (Maryland)؛ وأخرى عند نهر كنتيكت وأطلق عليها مؤسسها توماس هوكر (Hooker) اسم النهر فصارت ولاية كنتيكت (Conneticut)؛ ثم قام بعض المغامرين من ماساشوستس بإرساء قواعد مستعمرة ثالثة باسم نيوهامشاير (New Hampshire).

وفي سنة ١٦٧٠م أسس بعض النبلاء الإنجليز مستعمرة جديدة أطلقوا عليها اسم كارولينا (Carolina) تكريماً لاسم الملك الإنجليزي شارلس الثاني (Carolus II)، وفيما بعد انقسمت هذه الولاية إلى قسمين: كارولينا الشمالية، وكارولينا الجنوبية.

وفي سنة ١٧٣٣م قام مغامر إنجليزي اسمه جيمس أوغلثورب (Ogelthorpe) بتأسيس مستعمرة أخرى أطلق عليها اسم جورجيا (Georgia) تكريماً لاسم الملك جورج الثاني.



هذا، وكان الهولنديون من جانبهم قد أقاموا هم أيضاً مستعمرة لهم وأطلقوا عليها اسم نيو أمستردام (أمستردام الجديدة) (New Amsterdam) سنة ١٦٢٣م وذلك على جزيرة مانهاتن التي كانوا قد اشتروها من الهنود الحمر بما يقدر بأربعة وعشرين دولاراً، ولكن المستعمرين الإنجليز لم يرتاحوا لوجود الهولنديين بجوارهم في مستوطناتهم في العالم الجديد، فأغار الإنجليز بسفنهم على أمستردام الجديدة سنة ١٦٦٤م لاحتلالها بالقوة، ومع أن زعيم الهولنديين آنذاك واسمه بيتر ستاي فيسانت (Stuy vesant) أعد العدة لمواجهة الإنجليز، إلا

أن أهل المستوطنة خذلوا سيدهم وسلموا المدينة للإنجليز دون قتال. وقد منح الملك الإنجليزي هذه المستعمرة لأخيه دوق يورك (York)، ومن هنا جاءت تسمية نيويورك (New York).

وقد منح دوق يورك مساحات من الأرض شرقي وجنوبي نهر ديلاوير (Delaware)، وبذلك ولدت مستعمرتان جديدتان هما: ديلاوير، ونيوجيرسي (New Jersey).

وفي سنة ١٦٨٢م هاجرت جماعة إنجليزية أخرى من أبناء طائفة دينية تعرف باسم «كويكرز» (Quakers) وهم طائفة منشقة عن الكنيسة الإنجليزية ومتمردة أيضاً على التاج الإنجليزي، ويؤمن أفرادها بأن المحك الأوحى للإيمان هو «الضمير» وليس الطقوس والكهانة، كما أنهم يعارضون الحروب بشدة، وهم في صلواتهم يجلسون في صمت وتأمل وعندما تفيض بهم الروح تهتز أجسادهم (to quake) ومن هنا جاءت تسميتهم وتعني «المصلون المهتزون»! وكان زعيم هذه الجماعة ويدعى وليام بن (Penn) قد أمضى في سجون إنجلترا سبع سنوات بسبب آرائه الدينية والسياسية، ولما أخلى سبيله هاجر هو ونفر من أتباعه إلى أمريكا، حيث أقاموا مستعمرة أطلقوا عليها اسم زعيمهم «بن»، ولما كانت المنطقة مليئة بالغابات فقد أسموا مستعمرتهم «بنسلفانيا» (Pennsylvania) ومعناها «غابات بن» (Penn Woodland).

وبهذا اكتملت صورة الولايات أو المستعمرات الثلاث عشرة التي أقامها الإنجليز وهي حسب الترتيب الجغرافي:

مستعمرات الجزء الشمالي: ماساشوسيتس؛ نيوهامبشاير؛ كينيتيكيت؛ رود آيلاند.

مستعمرات الجزء الجنوبي: ماري لاند؛ فرجينيا؛ نورث كارولينا؛ سوث كارولينا؛ جورجيا.

مستعمرات الوسط الأمريكي: نيويورك؛ نيوجيرسي؛ ديلاوير؛ بنسلفانيا.

(راجع الخريطة).

هذا، وقد أثقلت حكومة لندن كواهل هؤلاء المهاجرين بالضرائب، الأمر الذي أدى في نهاية الأمر إلى وقوف الولايات الثلاث عشرة في حلف واحد ضد التاج الإنجليزي وحكومته، وفي سبتمبر ١٧٧٤م عقد مندوبو هذه الولايات مجتمعة مجلسا عرف باسم «الكونغرس» (Congress) في مدينة فيلادلفيا وأعلنوا فيه استقلالهم عن التاج البريطاني وإقامة دولتهم المستقلة باسم الولايات المتحدة الأمريكية. وفي سنة ١٧٧٦م تم إعلان وثيقة الاستقلال التي كان قد صاغها الزعيم توماس جيفرسون والتي صارت الأساس للدستور الأمريكي فيما بعد.



جورج واشنطن،

وكان طبيعيا أن يحتد الصراع العسكري بين القوات البريطانية المرابطة وبين هؤلاء الثوار على التاج الإنجليزي، وقد تولى قيادة الحرب الأمريكية ضد الإنجليز الزعيم جورج واشنطن، ولقد منى الإنجليز بهزيمة أولى في معركة ساراتوجاه Saratoga سنة ١٧٧٧م، ثم بهزيمة نكراء ثانية في يورك تاون (York Town) في ولاية فرجينيا، واضطر القائد الإنجليزي كورنواليس (Cornwallis) إلى الاستسلام هو ورجائه للثوار!

وأخيرا في سنة ١٧٨٢م اضطرت بريطانيا إلى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية، وتم التوقيع على هذا الاعتراف والصلح في مدينة باريس في سبتمبر سنة ١٧٨٣م.

أما الولايات التي انضمت أو ضمت إلى الولايات المتحدة الثلاث عشرة فيمن تلامن تواريخ فهي كالآتي (راجع الخريطة وقائمة الولايات التي ضمت تباعا).



جورج واشنطن

كندا



المستعمرات الإنجليزية

- | | |
|-------------------|------------------|
| (١) ماساشوستس | (٨) سوٲ كارولينا |
| (٢) نيوهامبشير | (٩) جورجيا |
| (٣) كنتيكت | (١٠) نيويورك |
| (٤) رود إيلاند | (١١) نيوجيرسي |
| (٥) ميريلاند | (١٢) ديلاوير |
| (٦) فرجينيا | (١٣) بنسلفانيا |
| (٧) نورٲ كارولينا | |

- ٢٧- سوٲ داكوتا سنة ١٨٨٩م.
- ٢٨- واشنطن (أولبيا) سنة ١٨٨٩م.
- ٢٩- مونتانا سنة ١٨٨٩م.
- ٣٠- ويومنج سنة ١٨٩٠م.
- ٣١- إيراهاو سنة ١٨٩٠م.
- ٣٢- يونا سنة ١٨٩٦م.
- ٣٣- أوكلاهوما سنة ١٩٠٧م.
- ٣٤- أريزونا سنة ١٩١٢م.
- ٣٥- نيومكسيكو سنة ١٩١٢م.
- ٣٦- ألاسكا سنة ١٩٥٩م.
- ٣٧- هاواي (جزيرة) سنة ١٩٥٩م.

- ١٤- فلوريدا سنة ١٨٤٥م.
- ١٥- ايواسنة ١٨٤٦م.
- ١٦- تكساس سنة ١٨٤٨م.
- ١٧- وسكونسن سنة ١٨٤٨م.
- ١٨- كالفورنيا سنة ١٨٥٠م.
- ١٩- مينوسا سنة ١٨٥٨م.
- ٢٠- أوريجون سنة ١٨٥٩م.
- ٢١- كنساس سنة ١٨٦١م.
- ٢٢- وست فرجينيا سنة ١٨٦٣م.
- ٢٣- نيفادا سنة ١٨٦٤م.
- ٢٤- نبراسكا سنة ١٨٦٧م.
- ٢٥- كلورادو سنة ١٨٧٦م.
- ٢٦- نورٲ داكوتا سنة ١٨٨٩م.

- ١- فرمونت سنة ١٧٩١م.
- ٢- كنتاكي سنة ١٧٩٢م.
- ٣- تنسي سنة ١٧٩٦م.
- ٤- أوهايو سنة ١٨٠٣م.
- ٥- لويزيانا سنة ١٨١٢م.
- ٦- انديانا سنة ١٨١٦م.
- ٧- ميسي سنة ١٨١٧م.
- ٨- إلينوي سنة ١٨١٨م.
- ٩- ألاباما سنة ١٨١٩م.
- ١٠- ميز سنة ١٨٢٠م.
- ١١- ميسوري سنة ١٨٢١م.
- ١٢- أركانساس سنة ١٨٣٦م.
- ١٣- ميشيجان سنة ١٨٣٧م.

الفصل السادس حركة الإصلاح الديني



بلغ الظلام أشده في أوروبا العصور الوسطى عند قيام محاكم التفتيش (Inquisition) في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. وواقع الأمر أن الكنيسة الرومانية بثيوقراطيتها (Theocracy) المتشددة، وبدخول البابوات في صراع مرير ضد السلطات العلمانية قد أصابت البلدان الأوروبية بحال من التوتر والقلق. وفي أثناء هذا الصراع بين الكاهن والقيصر تجاوزت البابوية حدود صلاحياتها فدخلت المعارك ولطخت سمعتها بالدسائس ويدها بالدماء. وذهل الناس عندما رأوا الكاهن الأكبر يدق طبول الحرب، فراحوا يترحمون على أسطورة «السلام الروماني» العالمي، وعلى «مدينة الله» الطوباوية التي كان قد بشر بها القديس أغسطينوس في القرن الخامس.

صكوك الغفران،

كما شاعت في تلك الأوقات أقاويل كثيرة عن سوء مسلك كبار رجال الدين، وخاصة شراء وبيع المناصب الدينية بالرشوة (السيمونية بلغة العصر Simony). وعرف عن مندوبي البابا إلى البلدان الأوروبية أن جيوبهم باتت تحشى بالفضة والذهب في جولاتهم التفتيشية كي يتسروا على الفساد. كما تورط الديوان البابوي في روما في إصدار صكوك لمنح الغفران من الذنوب (Indulgentia) للعديدين من النبلاء والأمراء الذين اقتربوا الكباثر، مقابل حفنة من المال، ومنذ أن أعلن البابا أورويان في الثاني من مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥ م «الغفران» لكل من يحمل سلاحه ويزحف للقتال في أرض فلسطين المقدسة، أخذت الدوائر الدينية في تصنيف هذا الغفران إلى درجتين: غفران للذنوب (Coulpe) وهو في زعمهم ينجي من نار جهنم؛ ثم غفران من القصاص (Peine) وهو الذي ينجي من المطهر. وبذلك صارت تجارة صكوك الغفران تجارة رائجة أثرى منها البابا وكبار رجال الدين، حتى صارت أمثلة يتندر بها العام والخاص في الغرب الفرنسي.

في أثناء ذلك كانت أوروبا - كما بينا في الفصول السابقة - تشهد ثغما مطردا في المدن ومولد مجالسها الوطنية أو «القوميونات»، سعيا إلى الاستقلال الذاتي عن سيطرة الأساقفة وأمراء الإقطاع، وفي نفس الوقت تحولت المدارس الكاتدرائية إلى جامعات تلتقن طلابها مساقات متنوعة



من الفكر الحر والفلسفة الأرسطية رغم أنف رجال اللاهوت. وسرت في القوم هنا وهناك روح الغضب والتمرد التي وضحت إرهاباتها في آراء بطرس أبيلارد الثورية في باريس (١٠٧٩-١١٤٢م)، وفي معمل روجر بيكون في أكسفورد (١٢١١-١٢٩٢م)، وفي صحاح الراهب المستنير إيكهارت في كولون (١٢٦٠-١٣٧١م)، وفي «الكوميديا الإلهية» لدانتي (١٢٦٥-١٣٢١م)، كذلك أخذت نقابات العمال والحرفيين من غزالين ونساجين وبنائين وحدادين وغيرها تفرض نفسها في المدن الجديدة، وتتطلع إلى شيء من العدالة الاجتماعية.

الأطهار

وقد نتج عن هذه العوامل جميعا أن سرت موجات غضب جارف ضد تعنت وجمود الكنيسة الرومانية، وشمل الغضب ربوع البلقان وشمال إيطاليا وجنوب فرنسا وإسبانيا وبلاد الراين والأراضي الواطئة وأواسط ألمانيا من كولون حتى جولزار. وعرف هؤلاء المتمردون باسم «الأطهار» (Katharoi)، وهي كلمة يونانية الجذور، وتعني هؤلاء القوم الذين يحيون حياة زاهدة على شاكلة المؤمنين البسطاء الباكرين. وأفكار هؤلاء «الأطهار» خليط من البوذية والمناوية والمسيحية في ماعون واحد. وهم يعتقدون بثائية الوجود؛ فهناك عالم الروح وهو الخير كله، وعالم الجسد وهو الشر بعينه. كما أنهم يؤمنون بتناسخ الأرواح،



بيع صكوك الغفران

ولكنهم لا يقيمون وزنا للمؤسسات الدينية وكهنتها، فهم لا يقبلون أوصياء عليهم في علاقتهم مع الخالق، كما أنهم يبنذون الأيقونات (الصور والتماثيل) ويلعنون صكوك الغفران.

وعلى الرغم من أن معلوماتنا عن «الأطهار» قد وردت من سجلات أعدائهم من الكاثوليك وسجلات محاكم التفتيش، إلا أن أحدا من هؤلاء الخصوم لا ينكر على تلك الجماعات شجاعة أفرادها الفائقة، وعدم جزعهم من الحرق بالنار، ولقد بلغت سجلات محاكم التفتيش في إصاق الاتهامات بتلك الجماعات، فزعموا أنهم يعبدون الشيطان،

وبأنهم يمارسون حرية جنس؛ ولذا فقد اعتبرهم أتباع "لوسيفر"، وإخوة
"الروح الضالة".



كانت مدن السهل اللومباردي في شمال إيطاليا قد انتعشت في القرن
الحادي عشر من اشتغال أهلها بالتجارة بين الشرق والغرب. وقد حفز هذا
الرخاء الاقتصادي وجهاء تلك المدن لإقامة حكومات جمهورية مستقلة تنأى
بنفسها عن الصراع المستعمر بين البابا والإمبراطور الألماني، ولكن رجال الدين
دخل تلك المدن وقفوا ضد تيار الحرية، وبعوا ولاءهم تارة للإمبراطور
وأخرى للبابا في مقابل حصولهم على امتيازات خاصة لأنفسهم من قبيل الإعفاء من الضرائب أو
الاحتفاظ بمحاكم أسقفية، إلى جانب تفويضهم في محاكمة خصومهم بتهمة الخروج عن قواعد
الإيمان (الهرطقة بنعة العصر).

ظهرت في مدينة ميلان جماعة من أبناء الطبقات الكادحة عرفت باسم باتريني
(Patereni) كانت تجاهد لإيجاد حلول لمشكلاتهم الاجتماعية والاقتصادية. وراح هؤلاء وأمثالهم
في مدن فيرونا، وفراز، ورميني، وبراتو، وبياتسزا، وقتربو، وفنورنسا يرفعون شعارات

تصوير لمحاكم التفتيش الكنسية





وتعاليم «الأطهار». ورغم مطاردة السلطات البابوية والألمانية - بعد صلح مؤقت بين البابا والإمبراطور الألماني - لهؤلاء الأطهار، ورغم إحراق الكثيرين منهم في النار، إلا أنهم لم ينشوا عن عزمهم. وباتت مدينة ميلان ملاذا للفارين من وجه الاضطهاد، سواء في إيطاليا أو ألمانيا أو فرنسا، ولقد عرف عن «أطهار» ميلان ثقافتهم العالية، إذ درجوا على إرسال أبنائهم النابهين لتلقى الفكر الحر في جماعة باريس ليستعينوا بسلاح العلم في الدفاع عن معتقداتهم.

أرنولد من برسيكيا:

وقد برز من بين هؤلاء النابهين نائر مرموق هو أرنولد من برسيكيا، الذي سافر إلى باريس ودرس على يد أستاذ عرف بثوريته وفكره الحر وهو بطرس أيلارد، فتشرب أرنولد من أستاذه الافكار الحرة، سواء في اللاهوت أو في فروع الفلسفة المختلفة. وبعد الانتهاء من دراسته في باريس عاد أرنولد إلى موطنه الأصلي في الشمال الإيطالي، وانخرط في سلك الكهنوت.

ومن موقعه هذا راح يجاهر بأرائه الإصلاحية؛ فقد أعلن أن امتلاك رجال الدين للملكيات خاصة إنما هو إثم كبير لا يتفق مع بساطة الرعاية الزاهدين. ولقد لقي هذا الكلام قبولا طيبا لدى الأهلين الذين كانوا يتندرون بحالة الرغد التي كان يحيها كبار رجال الدين كالأمرء.

أسرعت البابوية للإيقاع بهذا الثائر، ففي المجمع اللاتيراني الذي انعقد سنة ١١٣٩م، تقرر إدانة أرنولد وعزله من سلك الكهنوت ثم طرده إلى خارج إيطاليا. وهرب أرنولد إلى باريس ليحتمي تحت مظلة أستاذه أيلارد.

وفي أثناء غيابه في فرنسا كان أهل إيطاليا يتغنون في الطرقات بمواعظه، حتى وصلت أقواله إلى قلب روما نفسها. وهب أهل روما ثائرين يطالبون بمصادرة أملاك البابوية الشاسعة وبإقامة قوميون لمدينة روما لإعلان استقلالها كسائر مدن الشمال الإيطالي.

في أثناء ذلك كان البابا قد أصدر قرارا بالقبض على أرنولد وأستاذه أيلارد وبإحراق كتبهما جميعا، وفي حين أن الأستاذ قد امتثل لحكم البابا وتراجع عن مواقفه الثورية الإصلاحية، بقي تلميذه صلبا لا يتزعزع. وبضغط من البابا قام الملك الفرنسي بطرد أرنولد من باريس، فقصد منها إلى ألمانيا ثم سويسرا، وأخيرا عاد إلى موطنه الأصلي في إيطاليا. وتجمع «أطهار» لومبارديا حول أرنولد، وراح هو يخطب فيهم، مهاجما حياة البابا وكبار رجال الدين الرغدة من مال حرام، كما وصف البابوية بألفاظ جارحة ونابية تجاوزت حدود الكياسة.

وعند هذا الحد التفت البابا هادريان الرابع إلى عدوه اللدود فرديريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، وعقد معه صلحا، ثم طلب منه القضاء على أرنولد. وبالفعل لبى الإمبراطور رجاء البابا، فقاد حملة بنفسه سنة ١١٥٥م هبط بها من وراء جبال الألب على الشمال الإيطالي، وألقى القبض على أرنولد، وأمر بشنقه، ثم أُحرق جسده وذُرَّ رماده في نهر التيبر. وفي مقابل هذه المذبحة الظالمة كافأ البابا هادريان حليفه بربروسا بأن قام بتتويجه إمبراطورا للرومان في حفل مهيب في روما.



انتقلت آراء أرنولد من إيطاليا إلى فرنسا، وقد أفاق أهل الجنوب الفرنسي بوجه خاص من غيبتهم بعد أن تبين لهم أن الحروب الصليبية التي كانت تروج لها البابوية منذ أواخر القرن الحادي عشر كانت خدعة كبرى لتحقيق المآرب الشخصية للبابوية وكبار رجال الإقطاع في الغرب الأوروبي. وظهرت سلسلة من الشوار في الجنوب الفرنسي من أمثال بطرس دي برى الذي انتهى أمره بالاغتيال علانية سنة ١١٣٧م بتحريض من كبار رجال الدين، حتى نصل إلى أبرز هؤلاء الشوار وهو بطرس والدو من أهالي مدينة ليون.



تعذيب المتهمين لأخذ اعترافاتهم في الكنيسة

بطرس والدو

كان والدو في الأصل تاجرا ثريا، كَوَّن ثروة طائلة من عمليات الربا. وذات يوم وهو في الطريق صادف واحدا من الشعراء الجوالين ينشد سيرة واحد من الزهاد القدامى اسمه ألكسيس، الذي كان نبيلاً رومانيا واسع الثراء، ثم تخلى فجأة عن قصوره وضياعه وأعتق عبيده وسلك درب الزهاد، ثم راح يطوف بلدان أوروبا يقات على التسول وخبز «المسكنة» حسبما تقول الرواية.

وقد لمست كلمات الشاعر شغاف قلب صاحبنا والدو، وقرر أن يسلك نفس الدرب الذي اختاره ألكسيس الزاهد، ففعل عائداً إلى داره واستدعى زوجته وخيرها بين أمرين: إما رفقة على درب الفقر أو ميراث ثروته، وكان طبيعياً أن تؤثر الزوجة ميراثه الضخم، ولكن والدو أخذ في توزيع كل ما يملك على الفقراء والمعوزين، كما ردَّ إلى كل من تقاضى منه ربا حقه، معلنا ندمه



وتوبته، وهكذا قضى والدو على كل ما كان يملكه من مال ومتاع، ثم ارتدى مسوح النسك وأخذ يطرق الأبواب يشحذ كسرة من الخبز يقات عليها.

جن جنون الزوجة، فهرعت إلى أسقف ليون تشكو إليه حال زوجها وتطلب منه أن «يرده إلى صوابه»، ولكن والدو مضى في طريقه لا يلوى على شيء، وأخذ يطوف القرى والكفور يعظ الناس بحياة الزهد، وتزاحم الخلق يحملقون في هذا التاجر الغنى الذي وزع كل ثروته على الفقراء، وتحول الكثيرون إلى أتباع له لا يفارقونه.

الألبجنزيون،

وتجمع أتباع والدو في مدينة ألبى (Albi) في الجنوب الفرنسي واتخذوها مركزا لنشاطهم، ومن هذه المدينة اشتق اسمهم الجديد «الألبجنزيين» (ألبنوا Albigenois). وسرت في الجنوب الفرنسي موجة عارمة تطالب بالانعتاق من أغلال الإقطاع وترمت رجال الدين، وراحوا يضربون المثل للعام والخاص بسلوكهم البسيط؛ فهم يضعون ما يملكون مشاركة أمام أفراد جماعتهم، لكل نصيب كنصيب الآخر، وقد تمسك الجميع بقواعد الزهد والطهارة، في حديثهم ومسكنهم وملبسهم، وهم لا يكذبون ولا يحلفون، ولا يقبلون العمل بالتجارة خوفا من شبهة ربح حرام،



اضطهاد المسيحيين الكاثوليك للبيزنطيين والبروتستانت

وإنما يعملون في صناعة الأحذية وإصلاحها. ولا يفرطون في الطعام ولا يترددون على الحانات، بل يقضون أوقات فراغهم في المطالعة والدرس.

ولقد أثار مسلكهم الحسن إعجاب معاصريهم فأطلقوا عليهم «القوم الطيبين» (Bos homes)، وازدادت أعداد مريديهم يوماً بعد يوم.

شعرت الكنيسة الرومانية وتوابعها في فرنسا بخطر كبير يتهدد كيانها وهرمها الكهنوتي. ولم تفلح الأسلحة البابوية التقليدية من لعنة وحرمان وقطع ضد خصومها في إيقاف تيار الثورة. ولما تبين للبابوية عدم جدوى هذه السبل، أصدرت أوامرها إلى محاكم التفتيش لمحاكمة هؤلاء «الأطهار» بتهمة الهرطقة ثم إحراقهم بالنار، ومن خطط الكنيسة الرومانية أيضاً أنها - في مرحلة لاحقة - دعت إلى شن «حرب صليبية» ضد هؤلاء الخصوم على أنهم أعداء الإيمان.

وقد أولى البابا أنوسنت الثالث اهتماماً خاصاً بضرورة قمع جماعة والدو «الألبجنزيين» في الجنوب الفرنسي، فبدأ بمحاولة كسب راييموند السادس كونت تولوز إلى جانبه. ولكن راييموند كان في الخفاء متعاطفاً مع هذه الجماعات لا حبا في مبادئها، وإنما نكايَةً في نفوذ كبار رجال الدين المتعاضم في ولايته.

ثم التفت البابا إلى فيليب أغسطس ملك فرنسا لقيادة «حملة صليبية» ضد الألبجنزيين، ولكن فيليب كان منهمكاً في حربه ضد يوحنا ملك إنجلترا حول دوقية نورمانديا.

وهنا أقدم أنوسنت الثالث على نفس الخطة التي كان قد دبرها من قبل البابا أوروبان الثاني سنة ١٠٩٥م، فدعا علانية في ١٥ يناير ١٢٠٨م إلى قيام حملة صليبية ضد هراطقة الجنوب الفرنسي، ووعد من يشارك في هذه الحملة بنصيب من الغنائم مما يقع من أيدي الهراطقة، إلى جانب وعد بغفران الخطايا.

انزعج الملك الفرنسي من خطة البابا أنوسنت، وكتب إليه ينصحه بضرورة إصدار البابوية إدانة صريحة للكونت راييموند السادس بالهرطقة أيضاً، حتى تكتسب الصليبية مشروعيتها وموافقة حامل التاج الفرنسي نفسه.

ثم أوفد البابا مندوباً عنه اسمه بطرس كاستليني، إلى الجنوب الفرنسي، وهناك أصدر قراراً بالحرمان ضد راييموند السادس ثم قراراً بإباحة نهب أملاكه. ولكن أتباع الكونت راييموند استاءوا من هذا التطاول، وتسلسل واحد منهم واغتال المندوب البابوي على مقربة من بلدة سان جيل.





وجن جنون البابا فاهاب من جديد بمشاركة القادرين المخلصين فى حملة صليبية ضد الجنوب الفرنسى والكونت راييموند. وسارع الآلاف من الفرسان المفلسين فى الشمال الفرنسى يلتفون حول اللواء البابوى فى هذه الصليبية أملا فى الحصول على غنيمة دسمة من ثروات جنوبى البلاد.

وأسقط فى يد الكونت راييموند، فبادر يعلن الندم على مقتل المندوب البابوى، وحمل الصليب معلنا أنه سيحارب بنفسه مع جند البابا أنوسنت ضد هراطقة ولايته، ولكن البابا لم يلتفت إلى راييموند وأمر رجال الحملة بغزو أملاك الكونت راييموند.

زحفت الحملة الصليبية بقيادة نبيل من رجالات باريس اسمه سيمون دى مونت فورت إلى جانب المندوب البابوى الجديد أنرولد أمالرك. وأقدم رجال الحملة على مذابح رهيبة فى بلدان بينريه وما جاورها، حيث قتل الصليبيون ١٥.٠٠٠ من الأهلين دفعة واحدة. ثم نهبت وسلبت مدائن كركاسون وناربون دون رحمة أو هوادة. وفى النهاية كافأ المندوب البابوى نفسه بنصيب الأسد فصار كبير أساقفة ناربون، وهى أغنى أسقفيات الجنوب الفرنسى.

استنجد الكونت راييموند بصديقه بطرس ملك أراغون الإسبانية، فقدم الملك على رأس فرقة لمساعدة راييموند. ولكن سيمون دى مونت فورت ألحق الهزيمة بجيش الملك الأراغونى وقتله فى معركة «ميريه» (Muret) سنة ١٢١٣م، ثم انعقد مجمع اللاتيران سنة ١٢١٥م برئاسة البابا أنوسنت الثالث، وفيه تقرر إدانة راييموند السادس بالهرطقة وضرورة مصادرة أملاكه، كما قرر المجمع أيضا توزيع الأراضى التى استولى عليها الصليبيون كغنائم على قواد هذه الحملة.

وجد الملك الفرنسى نفسه فى موقف حرج، واضطر على مضض إلى القبول بالأمر الواقع، وإلى أن يقبل سيمون قائد الحملة البابوية كفصل من أفصاله على أن يقطعه مناطق بينريه وتولوز وكركاسون.

أما الكونت راييموند فقد أصيب بياس قاتل، فترك الأمور إلى ابنه ووريثه راييموند السابع واعتزل الحياة. وكان الوريث شابا جسورا عنيدا، فجمع رجاله وهجم على مدينة تولوز، وعند أسوارها تم اغتيال سيمون دى مونت فورت.

وضربت الفوضى أطنابها فى الجنوب الفرنسى، وخاصة بعد أن أرسل الملك فيليب ابنه لويس الثامن على رأس جيش لتصفية الموقف المضطرب. ولكن لويس قام بدوره بهجمات ضد

أهالى البلاد وذبح الكثيرين من الأبرياء، ولكن مدينة تولوز ظلت صامدة منيعة
فى وجه لويس وفرسان الصليبية الباقين بعد مقتل سيمون.

توفى فيليب أغسطس فخلفه على عرش فرنسا ابنه لويس الثامن، ثم ما
لبث أن توفى البابا أنوسنت الثالث (١٢١٦م)، فخلفه على العرش البابوى
هونوريوس الثالث، وقرر البابا الجديد إنزال لعنة الحرمان على رأس الكونت
رايموند السابع، إلى جانب قرار بمصادرة أملاكه وضمها إلى التاج الفرنسى.

وفى مقابل هذه المكافأة الدسمة، أخذ الملك لويس الثامن على عاتقه
مهمة تثبيت دعائم محاكم التفتيش فى جنوب فرنسا للقضاء على الألبجنزيين. ولكى يبالغ فى
إرضاء البابا أصدر قرارا بإقامة محاكم التفتيش فى شمال فرنسا أيضا، وكانت هذه المرة الأولى
التي يصدق فيها القانون الفرنسى على عقاب «الهراطقة» بالإحراق بالنار. والغريب فى الأمر أن
الكونت رايموند السابع قد تحول عن موقفه، وانضم إلى قوى العدوان الصليبي ضد الألبجنزيين
بدلا من الدفاع عنهم، وفى سنة ١٢٢٣م سمح رايموند السابع لمحاكم التفتيش بممارسة نشاطها فى
قلب أراضيه، وسعيًا منه فى كسب ود البابوية قام فيما بعد بإحراق ثمانين من الألبجنزيين بتهمة
الهراطقة فى بلدة آجين (Agen).

حرق محاكم التفتيش للهراطقة





وهكذا تحالف التاج الفرنسى مع الكرسى البابوى فى تليفيق الاتهامات ضد الآلاف من الأطهار الأبرياء ومن المخالفين فى الرأي، فصودرت مقدراتهم وصفى الآخرون جسديا. وقد ظلت هذه الوصمة لصيقة بالملكية الفرنسية حتى قيام ثورتها الكبرى سنة ١٧٨٩م.

ولقى الأطهار فى ألمانيا وأسبانيا نفس المصير الذى لقيه أبناء الجنوب الفرنسى على يد محاكم التفتيش فى مدائن متنز، ومينز، وجبال سوابيا، وستاير فى ألمانيا، وفى قرطبة، وقالنسيا، وقطالونيا، وسرقوسته فى إسبانيا.

ورغم كل هذه الأساليب من البطش والإرهاب الفكرى لمحاكم التفتيش، إلا أن صوت الثوار فى مختلف أرجاء أوروبا لم يخفت، ولا شك فى أن جماعات الأطهار بمختلف توجهاتها قد مهدت الطريق لظهور رواد الإصلاح الدينى فى أوروبا فى عصر النهضة. وكان على رأس هؤلاء الرواد: جون ويكلف الإنجليزى؛ وجون هس التشيكي، وساقونا رولا الإيطالى، ثم مارتن لوثر الألمانى.

جون ويكلف،

اتخذ جون ويكلف اسم شهرته من اسم بلده ويكلف فى منطقة يوركشير بإنجلترا، وهى آنذاك جزء من مقاطعة ريتشموند التى كانت تحت سيطرة بيت لانكستر، وقد حصل ويكلف على درجة الدكتوراه فى اللاهوت من كلية باليول بجامعة إكسفورد سنة ١٣٧٢م، وبعد ذلك بعامين أنعم عليه الملك إدوارد الثالث بقطعة أرض فى منطقة لتروز (Lutterworth)، ثم أوفده ضمن بعثة إلى بلدة بروج لمقابلة المندوبين البابويين لتسوية بعض الأمور المختلف عليها بين التاج الإنجليزى والبابوية، وأهم تلك الأمور استمرار إدوارد فى عدم دفع ضريبة مالية كانت قد فرضتها البابوية على إنجلترا منذ عهد الملك يوحنا سنة ١٢١٥م، ثم أبطلها الملوك الإنجليزى فيما بعد. ولم تنجح المفاوضات، فعاد ويكلف إلى إكسفورد يعاود محاضراته لطلابه.

وفى رحاب جامعة إكسفورد عكف ويكلف على البحث فى أخطر قضايا العصر، ألا وهى العلاقة بين السلطة الزمنية (الملك) والسلطة الدينية (البابا). ومن الأفكار التى اهتدى إليها كانت فكرة «السيادة» (Dominium)، والرأى عنده أن السيادة أصلا للخالق وحده، أما البشر، سواء أكانوا علمانيين أم رجال دين، فإنهم عندما يتصرفون فى هذه السيادة فإنهم يقومون بذلك بتكليف من الله، وينبغى أن تكون العدالة رائدهم فى ذلك. ويرى ويكلف أن جميع الأفراد فى أى مجتمع هم أصحاب حق طبيعى فى نصيب من هذا «الكرم الإلهى»، متمثلا فى الأرض وما تغله

من خيرات، حيث إن الارض كلها كانت في البدء مشاع بين كافة الناس، وذلك قبل السقطة الكبرى لأدم. والخطيئة كما يقول ويكلف - هي التي جلبت على البشر آفة الانانية والملكية الخاصة، ولا ينبغي على رجال الدين أن يكونوا طرفا في هذا التكالب على تراب الارض.



رحب النبلاء الإنجليز بأراء ويكلف؛ لأنهم كانوا يتمنونون لتسطو على الأراضي الشاسعة التي كانت تمتلكها الكنيسة الإنجليزية. ولكن رجال الدين الإنجليز كتبوا إلى البابا يطلبون العون ضد هذا الإنجليزي التمرد، ولكن عددا كبيرا من نبلاء إنجلترا وقفوا يسطون الحماية لشخص ويكلف، إلى أن فجا الناس بنظرية جديدة عن «القدرة» معلنا أن بعض الخلق مقدر لهم الخلاص، في حين أن البعض الآخر مقدر عليهم «التهلكة». وبأن المؤسسة البابوية على رأس الهالكين، كذلك جاهر ويكلف بأن المؤسسات الكنسية بتكاليها الباهظة لا مسير لقيامها، حيث إن الصلة بين العبد والرب لا تحتاج إلى الاوصياء وتحرر الدين من الكهنة.

ونظرا خطورة هذه الآراء، الزعج الكثيرون من أصدقاء ويكلف النبلاء وعلى رأسهم دوق لانكستر نفسه الذي أخذ يتصل من صديقه «المتهور»، وهنا ساحت الفرصة لاساقفة إنجلترا لإدانة ويكلف وطرده من جامعة إكسفورد، وبعده توارى الرجل في مزرعته المتواضعة، حيث توفي بعد سنوات قلانل.



الملك هنري الرابع

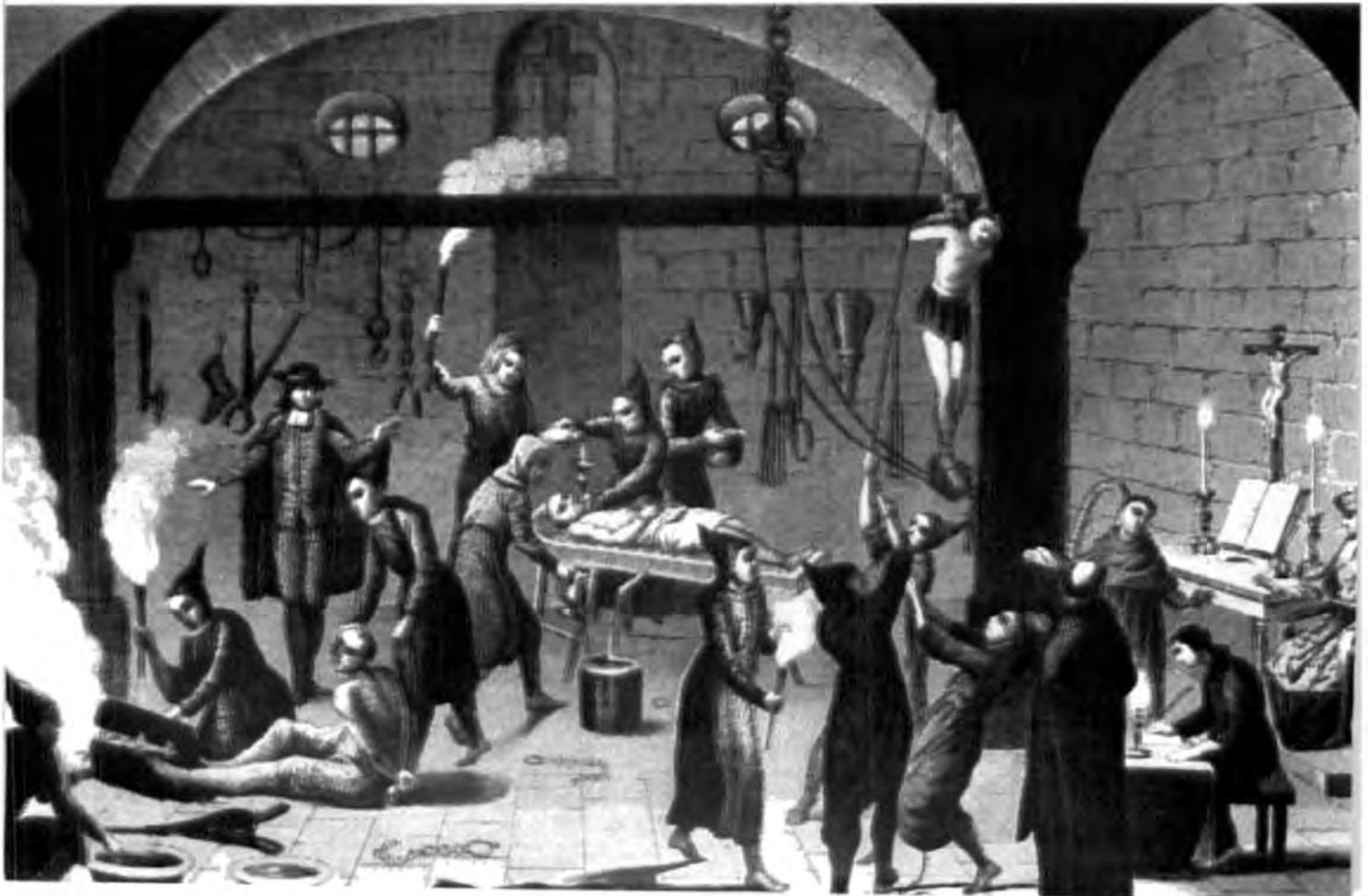
على أن آراء ويكلف لقيت صدى شعبي واسع في إنجلترا، وراح فريق ممن تشبعوا لهذه الآراء يصفون أرجاء البلاد بشي هذه الآراء. وقد أطلق عليهم المعاصرون لقب «نولارد» نظرا لتشبه أفكارهم مع أفكار «المولاردين» في الأراضي المنخفضة في القارة الأوروبية. وصارت «المولاردية» في إنجلترا مذهب الكادحين والعمال الساخطين؛ ولذلك فإن الملك ريتشارد الثاني أمر بالقبض على زعمانهم وإيداعهم السجن، وفي عهد الملك هنري الرابع صدر قرار ملكي يحرم المولاردية بقوة القانون، كما قدم نشر من



أتباعها بمحاكمة وتم إحراقهم بالنار. وسارت الأمور على هذا المنوال من البطش في عهد الملك هنري الخامس، حتى كانت سنة ١٤١٧م حين قبض على زعيمهم جون أولد كاست ثم أعدمه.

انتقلت آراء جون ويكلف من إنجلترا إلى القارة الأوروبية مع نهاية القرن الرابع عشر، والذي حدث أن الأمير ونستزلاز أكبر أبناء الإمبراطور شارل الرابع، والذي تزوج منكا على بوهيميا (١٣٧٨-١٤١٩م)، قد زوج أخته الأميرة آن للملك الإنجليزي ريتشارد الثاني، وقد اصطفت العروس معها ضمن حاشيتها عددا من محبي العلم، وفي إنجلترا عكف هؤلاء المستنيرون في بلاط أن على دراسة آراء جون ويكلف وتحسروا لما جاء فيها حماسا كبيرا، ولما أن عاد واحد منهم يدعى جيروم من إنجلترا إلى براغ، أخذ ينشر تعاليم ويكلف الثورية في أزوقة جامعة براغ، ولقد الرعج المستنلون في الجامعة من مسلك جيروم، وقرر مجلس الجامعة ببدانة آراء جون ويكلف برمتها، غير أن فريقا من المدرسين ضرب برأى الجامعة عرض الحائط، وكان على رأس هؤلاء المصحح التشيكي جون هس (Huss).

التعذيب لتطهير الروح في السجن الكنسي



جون هس:

ولد هس سنة ١٣٧٠م فى بلدة هوزنيك التشيكية، وحصل على درجتى الليانس والماجستير فى اللاهوت تباعا (١٣٨٦، ١٣٩٦م). وكان هس شابا متمردا يدعو إلى الإصلاح الدينى بأن يعود كبار الأساقفة والأساقفة بالدين إلى البساطة الأولى كى يقدموا لبطاء الناس القدوة الحسنة، كما أعلن هس أنه لا يحق للكاهن الخاطئ أن يقود الناس فى الصلاة؛ لأن فاقد الطهر لا يعطيه.



وتحمس القوم لأفكار هس فى أروقة براغ، وغلت المشاعر. ولكن البابا إسكندر الخامس أمر كبير أساقفة براغ بجمع كتب هس وجون ويكلف وإحراقها علنا أمام الناس (١٤١٠م).

وفى سنة ١٤١٢م وقع صدام بين البابا الجديد يوحنا الثالث والعشرين وبين ملك مدينة نابلى الإيطالية واسمه الأمير لادزلاس. ونظرا لحاجة البابا إلى المال أعلن عن قيام «حملة صليبية» ضد مملكة نابلى، واعداد بغفران الآثام لمن يساهم بالمال لتمويل هذه الحملة. وهكذا اكتملت مهزلة «صكوك الغفران».

كان جون هس أول من ندد ببيع صكوك الغفران؛ لأن فردوس النعيم لا يشتري ويبيع بالمال الحرام، وقال: إن دل هذا على شىء فهو إنما يشير إلى إفلاس الكنيسة الرومانية ماديا بعد أن أفلتت معنويا، والتف الناس حول هس فى غضبته المدوية، ثم أمسك بكتوب البابا عن بيع صكوك الغفران وأحرقه بالنار.

والواقع أن صورة الكرسى البابوى فى هذا المنعطف من التاريخ كانت قد وصلت إلى الحضيض، فلقد كان ثلاثة بابوات فى آن واحد يتنازعون للجلوس على العرش البابوى فى روما. وقد حدث هذا بينما انعقد مجمع كنسى فى مدينة كونستانس لحسم النزاع بين البابوات الثلاثة المتناحرين. ثم وجه المجمع أمرا إلى جون هس بالثول أمامه ولشرح موقفه وآرائه أمام الإمبراطور الرومانى المقدس سجموند نفسه الذى كان الرئيس الشرفى لهذا المجمع (نوفمبر ١٤١٤م). والحق أن سجموند كان حريصا على تهدئة الخواطر فى إمبراطوريته، فبعث من ينصح هس بالقدوم إلى المجمع، مؤكدا له حرصه على أمنه وسلامته حياته، على أن الكرادلة فى مجمع كونستانس اتخذوا قرارا بإدانة هس بسبب آرائه «المنحرفة» ثم ألقوا به فى السجن. سارع سجموند إلى بلدة كونستانس وأمر بإطلاق سراح هس من السجن، ولكن مستشاريه نصحوه بإعادته إلى زنزاته حفاظا على وحدة العقيدة تحت لوائه الإمبراطورى.

مجمع كونستانس:



ثم استؤنفت جلسات مجمع كونستانس برئاسة الإمبراطور سجموند، وتقرر خلع البابا يوحنا الثالث والعشرين (٢٩ مايو ١٤١٥م)، وتعيين مارتن الخامس، ثم قرر المجمع استدعاء جون هس مرة أخرى للمثول أمام المجمع في حضور الإمبراطور نفسه، وكان الكرادلة في المجمع قد دبروا لهس شركا شيطانيا للإيقاع به، ففي جلسة النظر في أمره - أمام الإمبراطور - سأله الكرادلة عن رأيه فيما يرتكب معصية من رجال الدين، فرد هس بأن هذا العاصي يستوجب العزل من منصبه الديني. ثم سألوه عمن يرتكب نفس المعصية من الأمراء أو الملوك أو الأباطرة، فرد الرجل بأن الأمير العاصي يستوجب بالمثل الخلع عن العرش.

وهنا شعر الإمبراطور سجموند بأخرج الشديد أمام أعضاء المجمع، ففتر حماسه لشخص هس وتخلي عن حمايته تماما. وفي اليوم التالي لهذا المشهد طرح مصير جون هس للتصويت،



حرق 'جون هس'



سافونا رولا - نحت بارز

فكان الإمبراطور سجموند أول من صوت بالحكم بإعدام جون هس. وفي يوليو ١٤١٥م، اقتيد جون هس إلى ركن عند أسوار مدينة كونستانس حيث تم إحراقه بالنار.



ولكن إحراق جسد هس لم يحرق أفكاره، بل إنها ازدادت اشتعالا في وجدان الشعوب السلافية، ومعها مشاعر الكره ضد الألمان وسيدهم الغادر سجموند. وتآلف حزب من أتباع جون هس بزعامة جون زسكا وأبناء براغ «الأحرار» (١٤٢٠م) يناهضون حكم سجموند في بوهيميا، فما كان من سجموند إلا أنه عقد حلفا مع البابا الجديد مارتن الخامس لشن حملات صليبية ضد أتباع هس في بوهيميا، وتوالت الحملات من سنة ١٤٢٠م حتى ١٤٢٧م، تقتل وتنهب أهل التشيك دون هوادة، وقد لمع في كفاح التشيك ضد الصليبية البابوية الألمانية اسم البطل القومي جون زسكا الذي أوصى وهو يحتضر في ساحة القتال أن يصنع رفاقه من جلده «طبله» يقرعون بها لإيقاظ مشاعر الثوار ضد الألمان والبابا.

ساقونا رولا:

أما ساقونا رولا فكان من شباب مدينة فلورنسا الإيطالية المعارضين لبيت مديتشي الحاكم، وقد شارك في الثورة ضدهم والتي انتهت بفرار آخرهم يدرو مديتشي إلى مدينة البندقية في التاسع عشر من نوفمبر ١٤٩٤م، بعد حكم لفلورنسا دام ستين عاما.

وبعدها نصح ساقونا الفلورنسين بانتخاب مجلس يضم ممثلين عن جميع فئات الشعب لسيير دفة الأمور، دون الحاجة إلى الأئمة (١٤٩٥). وكان ساقونا وأتباعه متعاطفين مع الملكية الفرنسية في صراعها مع البابا إسكندر السادس بوجيا وأصهاره في مملكة نابلي.

ولهذا فإن البابا كان يتحين الفرصة للقضاء على هذا الثائر المتمرد ضد البابوية، فاتهم ساقونا بخيانة الوطن بتأييده الملك الفرنسي الدخيل في أرض إيطاليا، ثم أرسل إلى أساقفة فلورنسا أمراً بأن يمنعوا ساقونا من الوعظ بالناس.

امتثل ساقونا للأمر وأتاب عنه واحدا من تلاميذه للقيام بالوعظ بدلا منه، حتى غمر العاصفة بسلام، على أنه في عيد ميلاد سنة ١٤٩٧م، خرج ساقونا من صمته واعتلى المنبر في كاتدرائية سان مارك وصرخ قائلاً بأن صوتنا سماويا قد طلب إليه ألا ينصاع لأمر أرضي، وألا يرضخ لقرار كاهن فاسد (إسكندر السادس) معروف بالانحلال والشذوذ والغدر.

أمام هذا التحدي بعث البابا إسكندر السادس براهب يدعى فرانسيس لكي يتصدى لساقونا رولا في فلورنسا، وكان فرانسيس خطيبا مفوها اجتذب إليه عددا كبيرا من شعب فلورنسا، ثم أعلن على الناس أنه يقبل أن يُحكّم بينه وبين ساقونا بالنار، كي يظهر الحق ويحترق الدجال من



المحتكمين . ولم يكن أمام سافونا رولا إلا أن يقبل هذا التحدي حفاظا على شعبيته، وتحمس الناس في المدينة لهذا الحدث المثير، وخاصة بعد أن وافقت دار السيادة في فلورنسا والبابوية أيضا على المضي في التحكيم بالنار، وحدد لذلك يوم السابع من أبريل لسنة ١٤٩٨م.

وفي اليوم المحدد نصبت مشنقة في الميدان العام للمدينة، ثم أعدت أخشاب محر التحكيم بالنار على صفيين لمسافة ثمانين قدما، وكان المخطط كالعادة أن يمر الراهبان المحكمان داخل هذا الممر وسط الأخشاب المشتعلة، ومن يخرج من الممر الناري سالما فهو على حق فيما يقول، وأما من يحترق جسده بالنار ويتعثر يكون مذنبا يستحق الشنق.

واكتظت الساحة بالمتفرجين من كل صوب في مدينة فلورنسا، وفتح الأهليون أصحاب المنازل المظلة على الساحة نوافذهم لتابعة التحكيم في لهف زائد، ثم وصل أتباع كل من الراهبين المحتكمين، كل فريق ينشد أناشيده الخاصة ويدعو لصاحبه بسلامة الخروج سالما من النار.

على أن خلافا نشب بين الفريقين حول بعض الطقوس السابقة لإشعال النار في الأخشاب، وتبادل الفريقان الاتهام ثم السباب والشتائم، حتى ضاق الناس بالفريقين من طول الانتظار، فأخذوا في الانصراف عن ساحة التحكيم، ثم حدث أن انهمر مطر غزير فأفسد كومات الخشب



واخطب المعدة للمحرقة. وأصيب الفلورنسيون بخيبة أمل مريرة؛ لأن المعجزة التي كان ساقونا زولا قد وعدهم بتحقيقتها يوم التحكيم لم تتحقق، فظنوا أنه كان يخادعهم ويستخف بعقولهم، وبذلك فقد ساقونا شعبيته السابقة، بفعل مكيدة البابا إسكندر السادس وأتباعه.



كان ساقونا بعد هطول المطر قد اختبأ مع اثنين من أتباعه وهما دومنيكو بونيو تشينو، وسلقستر ماروخي، وهجم أعداؤه على مخبئه وقبضوا عليه وعلى تابعيه المخلصين وأودعوه السجن. ثم أرسل البابا إسكندر السادس أوامره بتقديم ساقونا وصاحبيه للمحاكمة أمام محكمة التفتيش، وفي المحاكمات تعرض ساقونا ورفيقاه لإهانات بالغة ولتعذيب شديد، ثم حكم على الثلاثة بالإعدام حرقاً بالنار.

وفي الثالث والعشرين من مايو ١٤٩٨م، تمَّ إحراق ساقونا ورفيقيه في نفس البقعة التي كانت قد أعدت منذ ستة أسابيع لإظهار معجزة ساقونا الخارقة. وهكذا كتبت البابوية فصلاً دمويًا جديدًا من فصول تصفية المصلحين الثائرين.

لم تكن المشنقة ولا كانت النار التي أحرقت الأظهارة والثوار لتوقف تيار التاريخ، فقد بدأت الطبقات الكادحة تثور في كل مكان في أوروبا ضد أمراء الإقطاع والكنيسة الرومانية. وجاءت الضربة الكبرى التي زلزلت بقايا قلاع الإقطاع الديني من حيث لا يحتسب، فلقد جاءت على يد ابن لفلانح بسيط من أهالي ثورنجا الألمانية، وذلكم هو المصلح الثائر مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦م).



مارتن لوثر؛

بدأ مارتن لوثر حياته في سلك الديرية الأغسطينية في بلدة إرفورت وهو في الثانية والعشرين من عمره (١٥٠٥م)، ثم ما لبث أن دهمه شعور مرير من الضيق والكآبة لأسباب لم يفصح عنها لأحد، ففرض على نفسه نظامًا صارمًا من الصوم والسهر يغالب به شيطان الليالي

مارتن لوثر



الطويلة، ولكن هذا كله لم ينجح في شفاء روحه القلقة ونفسه المضطربة. وقد وصف لوثر هذه اللحظات القائمة من حياته فيما بعد بقوله: «لو أن راهبا قدر له أن يدخل النعيم بسبب تحقير جسده وشهواته، لكنت أنا أول الداخلين».

وفي هذه المرحلة من «الشقاء» تكشفت لمارتن لوثر فكرة مخيفة، إذ أخذ يحدث نفسه بأن السماء لو أنها وجدت في العذاب الذي يكابده المرء سبيلا للخلاص، لكانت مثل حكام أوروبا المستبدين الذين يتلذذون بآلام رعاياهم من الأتقان والعييد. ولكن هذا الخاطر «الشيطاني» أصاب لوثر بفرع شديد خوفا من التردى في شبك الشك والضلال.

وبعدها انكب على تحليل ما ورد في «اعترافات» القديس أغسطينوس وفي «مدينة الله»، لعله يهدأ روحا. وبالفعل أتت المراجعة المتأنية لهذين العاملين العملاقين أكلها، إذ شعر لوثر بارتياح داخلي، وأخذت روحه المؤرقة تستشعر طعم السعادة، وبعد أن امتلأت الروح بزاد نظيف صرخ لوثر من أعماقه قائلا: «إن الإيمان الخالص والكلّي هو درب السعادة للروح الشاردة، وإن الرحمة الإلهية هي الشفاء الكامل». ومن هذه التجربة الذاتية خلص لوثر إلى أن التوبة ليست بإيقاع العذاب على الجسد أو العقل، وإنما هي تتأتى بانفتاح شغاف القلب كي تتلقى نسمة الرحمة الإلهية.

وعليه راح لوثر ينادى بأن «الغفران» (Indulgentia) هبة الله لخليقته، ولا يمكن بحال أن تشتري هذه الهبة أو تباع، كما يفعل البابوات والكرادلة والأساقفة. واتبع هذا برأيه في أن ما تروج له الكنيسة الرومانية من حق في الحل والربط على الأرض، أمور غريبة على صحيح الإيمان.

وفي سنة ١٥٠٨م اضطلع مارتن لوثر بالتدريس في جامعة وتنبرج، التي كان الأمير «الحكيم» فردريك قد أسسها منذ فترة وجيزة لخدمة العلم ومحبي العلوم. وأقبل الطلاب على لوثر المحاضر الثائر في حماس منقطع النظير، حتى سطر اسمه في كل الآفاق.

وفي سنة ١٥١٠م قام لوثر بزيارة إلى مدينة روما، وفيها ازدادت شكوكه في الطقوس الرومانية المعقدة التي لا يفهمها بسطاء الناس من المصلين، كما ازداد سخطه على الجالس على العرش البابوي، ممسكا في يده اليمنى بالسوط ويده اليسرى لعنة «الحرمان». ويقول لوثر: إنه راح يفتش في جنبات روما عن خيط الإيمان البسيط الفطري، فلم يجد له أثرا، ففقل راجعا إلى بلاده وهو يتمتم: «لا خلاص إلا من الداخل، ودون وصاية من كهانة».

ولما أن وصل لوثر إلى بلدته وتبرج فوجئ بوجود مندوب بابوي اسمه تنزال يبيع «صكوك الغفران» لكل من يتبرع بالمال لاستكمال بناء كنيسة في روما، وذلك بتكليف من البابا ليو العاشر. ولم يترك لوثر المسألة تمر، فتصدى للمندوب البابوي يصيح بأن هذا الذي يفعله تجاراً لا يليق بالدين، بل هو ابتزاز الأموال من السذج من الناس.



وفي ١٧ أكتوبر لسنة ١٥١٧م نشر لوثر بياناً من خمس وتسعين حجة يهاجم بها «صكوك الغفران»، وتحدى من يرغب في مجادلته في رأيه في حوار علني، كما علق هذه الحجج على بوابة كنيسة وتبرج ليطالعتها الخاص والعام.

وجدت الكنيسة الرومانية هذه المرة أنها أمام خصم عنيد، فدعت إلى عقد مجلس الديايط (Diet) الألماني في أوجزبرج لمناقشة أمر لوثر (١٥١٨م). واحتدم النقاش طويلاً داخل المجلس بين ممثلي البابوية من طرف وبين لوثر وأشياعه من طرف آخر. وفي النهاية قرر الديايط أن يسحب لوثر مقولاته عن صكوك الغفران وألا يعود للخوض في هذا الأمر مرة أخرى.

ولكن أنصار لوثر (اللوثريين) لم يقبلوا بقرار الديايط، وانبرى عدد وافر من المستنيرين الألمان للدفاع عن آراء لوثر؛ من أمثال المفكر أولرخ ثون هوتن الذي نشر مقالا سنة ١٥١٩م قال فيه:

«إن روما تعتمد في مزاعمها على ثلاثة أوهاام: الإمارة البابوية، وعظام القديسين، وصكوك الغفران، وهي تخشى ثلاثة حقائق: الجامعات الكنسية، ولفظة الإصلاح، ويقظة الشعب الألماني، وهي تجرم ثلاثة فضائل: الزهد، وبساطة الدين، وكلمة الحق».

وفي سنة ١٥٢٠م نشر لوثر رسالة موجهة إلى الأمة الألمانية باللسان الألماني، هاجم فيها الكهانة ووصاية رجال الدين على ضمائر الناس، كما ندد بالتبطل (عدم زواج رجال الدين)، ثم وجه رسالة أخرى إلى البابا ليو العاشر نفسه، هاجم فيها فساد كبار رجال الدين وأسلوب معيشتهم كالأمراء في القصور «كما كانت تفعل بابل وسدوم في القديم»، مهدداً في نهاية الرسالة بأنه سوف يظل يقاوم هذه المظالم ما دامت حرارة الإيمان تدب في قلبه.

وجاء رد الفعل سريعا في يوليو ١٥٢٠م في شكل قرار بالحرمان ضد لوثر؛ لأنه «هرطيق خطير»، وأمسك لوثر بقرار الحرمان (Excommunication) وأشعل فيه النار أمام جماهير غفيرة في بلدة وتبرج، وذلك في العاشر من ديسمبر لسنة ١٥٢٠م.

وبذلك أشعل لوثر عاصفة مدوية في ألمانيا، قدر لها أن تنتشر في كل أنحاء أوروبا كي تقتلع المؤسسة الرومانية من جذورها. ومع هذه الثورة يبدأ عصر «البروتستانت» (Protestants)



أى «المحتجين» لينهى عصر سيطرة الكنيسة الرومانية ولغتها اللاتينية على كل أصقاع أوروبا.

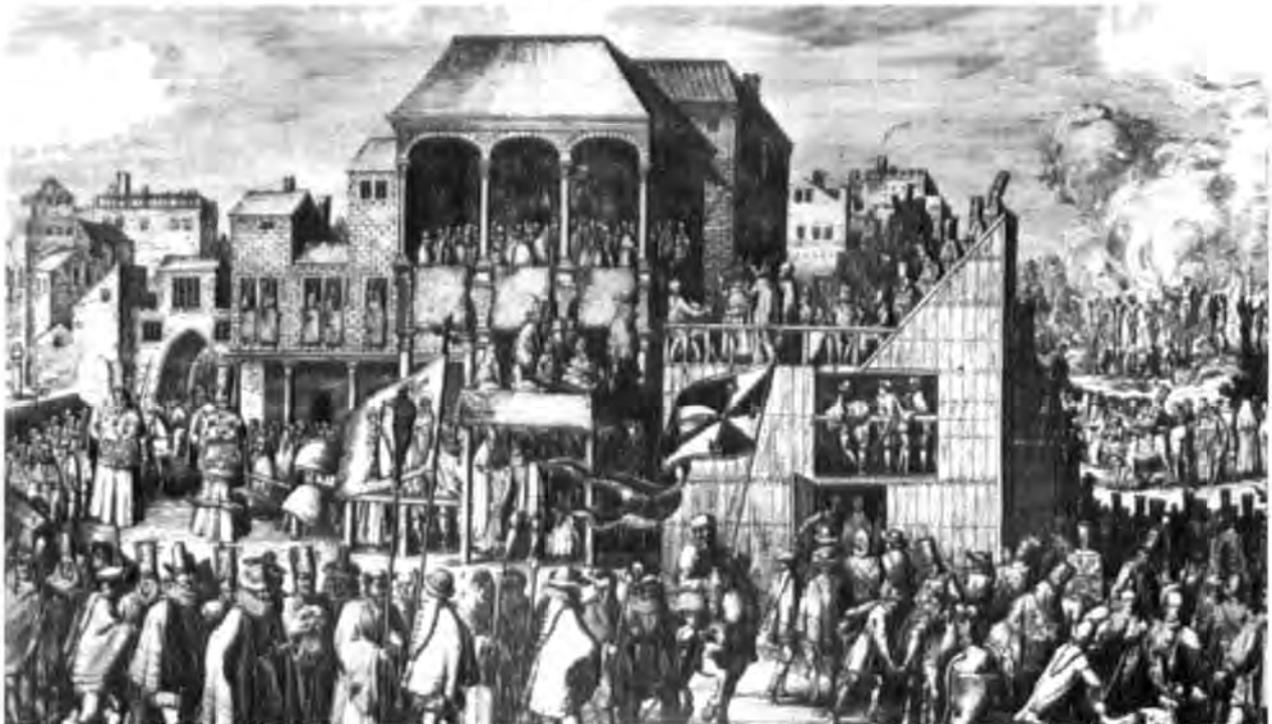
دعا البابا ليو العاشر الإمبراطور شارل الخامس لأن يعقد مجلس الديباط فى مدينة ورمز لاتخاذ موقف حاسم من لوثر وأتباعه. ولكن الإمبراطور ورجاله المقربين كانوا مدركين لىلمدى الذى باتت اللوثرية تتمتع به فى قلوب الشعب الألمانى، ويتضح ذلك من تقرير بعث به المندوب البابوى «ألياندر» فى ألمانيا حيث يقول:

«إن تسعة أعشار الألمان يهتفون للوثر، وإن العشر الباقى، وإن كانوا لا يهتمون باللوثرية، إلا أنهم يهتفون بسقوط البابوية».

قرر المجتمعون فى ديباط ورمز (١٥٢١م) استدعاء لوثر للدفاع عن نفسه، ومع أن البابا قد احتج على دعوته، إلا أن الإمبراطور شارل الخامس أصر على ظهور لوثر أمام المجلس. وحضر لوثر إلى مدينة ورمز، ووقف فى مجلس الديباط شامخا صلبا لا يلين يدافع عن آرائه بحجج بليغة قوية، وبلغ به الانفعال فصاح قائلا: «لا سلطان أرى على فيما يتصل بكلمة الله».

وهنا شعر الإمبراطور بالخرج والغضب، وقرر المجلس إصدار قرار حرمان آخر ضد لوثر، مع إحراق كتبه ومقالاته جميعا. هرب لوثر من المجلس إلى قلعة وارنبورج فى سكسونيا ليستظل بحماية صديقه الأمير فردريك «الحكيم»، وخسن حظ لوثر انشغل الإمبراطور شارل الخامس فى حروبه فى إسبانيا التى دامت حتى سنة ١٥٢٩م.

حرق مارتن لوثر لقرار الحرمان الصادر ضده أمام الجماهير



وفى خلال تلك السنوات انتشرت تعاليم مارتن لوثر فى بلدان أوروبا كالنار فى الهشيم . ومع أن محاكم التفتيش أخذت تضرب اللوثرين بالحديد والنار، إلا أن أصحابها شعروا بأن الأرض أخذت تهتز من تحتهم فى كل مكان .



وعندما قامت محكمة التفتيش فى بروكسل بإحراق راهبين بسبب آرائهما اللوثرية (١٥٢٣م)، حزن لوثر حزنا شديدا، فنظم ما عرف باسم «مزامير الأحران» حيث يقول:

«رماد أجسادهم لن يبید

الريح تحمله من صعيد إلى صعيد

هو ذا الصيف يطل علينا من بعيد

مضى غيمُ الشتاء ووخز الجليد

براعمُ الأزهار تفتحت

تعانق بعطرها وجنة العيد

من تعهد عهدا

مات وهو شهيد

كلمةُ الحق تلوح علينا

تبشر بالعهد الجديد» .

دخلت اللوثرية فى المرحلة التالية فى صراع مرير مع الإمبراطور شارل الخامس، وفى نهاية المطاف لم يكن أمام الإمبراطور مناصٌ من الاعتراف بالأمر الواقع، ففي ٢٥ ديسمبر لسنة ١٥٥٥م تمَّ الاعتراف بالبروتستانتية (اللوثرية)، غير أن هذا الاعتراف قد جاء بعد وفاة البطل لوثر بعشر سنين، وهكذا أشرقت على أوروبا شمس فجر جديد .



- زيغريد هونكه: شمس الله تسطع على أوروبا. ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي.
دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٦.

- 1- J. Atkinson: Martin Luter and The Birth of Protestantism. London. 1968.
- 2- Trenchard Cox: The Renaissance in Europe (1400 - 1600). 1933.
- 3- H.A.L. Fisher: A History of Europe. London. 1936.
- 4- F.A. Gasquet: The Eve of The Reformation. 1905.
- 5- Niccolo Machiavelli: The Prince (Translated by George Bull). Penguin Books. 1961.
- 6- R.B. Merriman: The Rise of The Spanish Empire. 1918 - 25.
- 7- E. J. Payne: History of the New World Called America. 1892 - 9.
- 8- George Sampson: The Concise Cambridge History of English Literature (3rd Edition). Cambridge University Press. 1970.

محتويات الكتاب



الصفحة	الموضوع
١	مقدمة.
٣	الفصل الأول: شمس العرب تسطع على أوروبا: فضل العرب على الغرب الأوروبي - أعلام الحضارة العربية في العصور الوسطى - ترجمة شوامخ الفكر العربي إلى اللاتينية.
٧-٣	
٨	الفصل الثاني: إيطاليا تقود الركب: دانتي والكوميديا الإلهية - الحركة الإنسانية في إيطاليا - بترارك - بوكاشيو - بيساريون - لورنزوفاللا - مكيافيللي - بالداسارى - جيوتو - مايكل أنجلو - ليوناردو دانشى.
٢٩-٨	
٣٠	الفصل الثالث: النهضة فيما وراء جبال الألب: رابليه ورونسارد في فرنسا - روجرييكون وتشوسر وتوماس مور وفرانيس بيكون وشكبير في إنجلترا - سرفانتيس في أسبانيا - يوحنا جوتنبرج واختراع الطباعة في ألمانيا.
٤٢-٣٠	
٤٣	الفصل الرابع: الكشوف الجغرافية: رحلة ماركوبولو إلى الشرق الأقصى - الكشوف الجغرافية تحمل نفس الأفكار الصليبية - رحلات الأمير هنرى الملاح - فاسكوداجاما - ألبوكيرك والسياسة الاستعمارية للبرتغال فيما وراء البحار.
٤٩-٤٣	



٥٠

الفصل الخامس: العالم الجديد:

كرستوفر كولومبوس - أميرجوفسبوتشى - رحلة
ماجلان - الهنود الحمر فى أمريكا - قبيلة الأزتک -
قبيلة الإنکا - بطش الأسبان بالهنود الحمر على يد
كورتيز وبيزارو - المستعمرات الإنجليزية فى العالم
الجديد .

٦٣-٥٠

٦٤

الفصل السادس: حركة الإصلاح الدينى:

الأطهار - قيام محاكم التفتيش - الثائر أرتولد
من برسكيا - والدو والألبجنزيون - حملة صليبية ضد
الألبجنزيين فى الجنوب الفرنسى - جون ويكلف الثائر
فى إنجلترا - جون هس التشيكي يدعو للإصلاح الدينى
- سافونا رولا والتحكيم بالنار - مكائد البابا إسكندر
بورجيا - مارتن لوثر والعهد الجديد .

٨٤-٦٤

٨٥

المراجع .

٨٦

المحتويات .

Abstract

This book dwells upon the transformation that took place in Europe by the end of the Middle Ages. The impact of the Arab - Islamic culture on the mentality of Medieval Europe is equally highlighted, via the translation of the prominent Muslim Works in diverse domains of knowledge.

It was the Italian cities that triggered the transformation towards the humanistic movement and individualism. Many men of letters, artists, and scientists pioneered this movement. Among the renowned names we find Michael Angelo, Roger Bacon, Shakespeare, Gottenberg, and many others.

The work culminates with the religious reformation and the ultimate birth of Protestantism by the great reformer Martin Luther.

Dr. Ishak Ebeid



History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR: THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

P. Said Abd El-Fattah Ashour	Professor of Medieval History - Faculty of Arts - Cairo University. Chairman of the Arab Historians Union.	Chairman
P. Adel Hassan Ghoneim	Professor of Modern History - Faculty of Arts - Ain - Shams University.	General Coordinator
P. Abd El-Halim Nur Eldin	Professor of Ancient Egyptian Language - Faculty of Archaeology - Dean of the Faculty of Archaeology, Fayyoun Branch, Cairo University. Director of the Centre of Calligraphy, Bibliotheca Alexandria.	Rapporteur of Ancient History Series
P. Ishak Ebeid	Professor of Medieval History - Faculty of Arts - Ain - Shams University	Rapporteur of Medieval History Series
P. Essam El-din Abd El-Raouf	Professor of Islamic History - Faculty of Arts - Cairo University.	Rapporteur of Islamic History Series
P. Gamal Zakariya Kassem	Professor of Modern History - Faculty of Arts - Ain - Shams University.	Member
P. Attiya Al-Qoussy	Professor of Islamic History - Faculty of Arts - Cairo University.	Member
P. Saber Diah	Professor of Islamic History - Dar El-Ulum Faculty, Fayyoun Branch, Cairo University.	Member
P. Raafat Abd El-Hamid	Dean of the Faculty of Arts (Formerly) - Ain - Shams University & Professor of Medieval History.	Member

Editing Directosrs: Chemist/ Amin Mohamed Al-Khodary

Engineer/ Atef Mohamed Al-Khodary

Committee Secretary: Abd El Halim Ibrahim Abd El-Halim

Designed by : Mohy El-Din Fathy El-Shaloudy

Correspondence & Communications:

Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 2752984 Fax: 2752735

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

**The Encyclopaedia of History,
Archaeology and Civilization**

**Modern and
Contemporary History**

6



The Renaissance of Europe

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>

Dr. Ishak Ebeid

Publisher

Dar Al-Fikr Al-Arabi

94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo

tel : 2752794 . Fax : 2752735

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com